غزوات النبي ﷺ

محمد علي القطب

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2020م - 1441هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت ألكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدمًا.

E. Mail: alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المُحتَوَيَاتْ

غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى ... 7
غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ ... 19
غَزْوَةُ غَطَفَانَ ... 29
غَزْوَةُ أُحُدٍ ... 39
غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ ... 51
غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ ... 61
غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ... 71
غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ ... 81
غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ ... 93
صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ... 103
غَزْوَةُ خَيْبَرَ ... 113
غَزْوَةُ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ ... 127
غَزْوَةُ فَتْحِ مَكَّةَ ... 137
غَزْوَةُ حُنَيْنٍ ... 149
غَزْوَةُ تَبُوكَ ... 163

1

غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى

غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ».

حِينَ أَجْبَرَتْ قُرَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَنَعَتْ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَمُمْتَلَكَاتِهِمْ، فَتَرَكُوهَا وَرَاءَهُمْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهَا، فِرَارًا بِدِينِهِمْ وَتَضْحِيَةً بِكُلِّ مُتَاعٍ فِي سَبِيلِ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقَامُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْصَارِ، مُؤَاخَاةً فِي اللهِ وَالْإِسْلَامِ، قَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ «الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ» أَمْوَالَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَأَرَاضِيهِمْ تَحْقِيقًا لِهَذَا الْمَبْدَإِ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ارْتَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِقَوَافِلِ قُرَيْشٍ التِّجَارِيَّةِ السَّاعِيَةِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْحِجَازِ، وَاقْتِنَاصِ مَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالٍ وَعُرُوضٍ تَعْوِيضًا لِلْمُسْلِمِينَ عَمَّا حَرَمَتْهُمْ مِنْهُ قُرَيْشٌ، وَإِيذَانًا بِحَرْبٍ اقْتِصَادِيَّةٍ يَشُنُّهَا عَلَيْهِمْ.

وَذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا مَنْ يُخْبِرُهُ أَنَّ قَافِلَةً لِقُرَيْشٍ يَقُودُهَا «أَبُو سُفْيَانَ ابْنُ حَرْبٍ» تَتَّجِهُ نَحْوَ الشَّامِ، مُحَمَّلَةً بِالْبَضَائِعِ الْكَثِيرَةِ، فَخَرَجَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِاعْتِرَاضِهَا وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مَا فِيهَا، إِلَّا أَنَّهَا فَاتَتْهُ وَأَفْلَتَتْ مِنْهُ، فَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَنْتَظِرُ رُجُوعَهَا؛ وَتَرَكَ مَنْ يَقُصُّ لَهُ خَبَرَهَا فِي أَوْبَتِهَا (عَوْدَتِهَا).

وَبَعْدَ أَنْ بِيعَتْ عُرُوضُ الْقَافِلَةِ فِي دِمَشْقِ الشَّامِ، وَرَبِحَ «أَبُو سُفْيَانَ» مَالًا كَثِيرًا، تَزَوَّدَ لِرِحْلَةِ الْعَوْدَةِ بِأَنْفَسِ الْبِضَاعَةِ وَأَغْلَاهَا، وَقَفَلَ عَائِدًا إِلَى مَكَّةَ وَنَفْسُهُ مُرْتَاحَةٌ كُلَّ الرَّاحَةِ لِمَا لَقِيَهُ فِي سَفَرِهِ هَذَا مِنَ الْكَسْبِ الْوَفِيرِ.

وَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ خَبَرُ عَوْدَةِ الْقَافِلَةِ انْتَدَبَ الْمُسْلِمِينَ لِمُلَاقَاتِهَا وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مَا فِيهَا، فَخَرَجَ مَعَهُ ثَلَاثُمِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ سِوَى سَبْعِينَ بَعِيرًا (جَمَلًا) وَفَرَسَيْنِ يَتَنَاوَبُونَ الرُّكُوبَ عَلَيْهَا، وَكَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ يَتَنَاوَبُ الرُّكُوبَ مَعَ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَ«مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ أَصْحَابِهِ، لَا يَخْتَلِفُ عَنْهُمْ فِي شَيْءٍ، وَلَا يَتَعَالَى عَنْهُمْ أَبَدًا، وَلَقَدْ قَالَا لَهُ:

ـ تَظَلُّ أَنْتَ رَاكِبًا وَنَحْنُ نَسِيرُ...

فَقَالَ لَهُمَا ﷺ:

ـ مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى الْمَسِيرِ، وَلَا أَحْرَصَ مِنِّي عَلَى الْأَجْرِ.

كَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ.

عَلِمَ «أَبُو سُفْيَانَ» بِخُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ وَاحْتِشَادِهِمْ لِاعْتِرَاضِهِ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَمْوَالِ الْقَافِلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ مَا يَكْفِي لِحِمَايَتِهَا.

وَعَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ أَرْسَلَ شَخْصًا ـ اسْمُهُ «ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ» اسْـــتَأْجَرَهُ بِبَعْضِ الدَّرَاهِمِ ـ إِلَى مَكَّةَ لِيُخْبِرَ قُرَيْشًـــا بِخُطُورَةِ الْمَوْقِفِ، وَلِيُنْذِرَهُمْ بِسُـــوءِ الْعَاقِبَةِ إِنْ هُمْ تَبَاطَئُوا فِي النَّجْدَةِ، وَلِيَتَّخِذُوا جَمِيعًا مَا يَرَوْنَهُ مُنَاسِبًا.

وَأَمَّا مِنْ جِهَتِهِ هُوَ فَقَدْ غَيَّرَ الطَّرِيقَ الَّتِي اعْتَادَهَا النَّاسُ مِنْ قَبْلُ، وَاتَّخَذَ طَرِيقًا آخَرَ سَاحِلِيًّا لِلتَّمْوِيهِ وَالتَّضْلِيلِ، رَغْمَ بُعْدِهِ وَطُولِهِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ «ضَمْضَمُ» إِلَى مَكَّةَ جَدَعَ (قَطَعَ) أَنْفَ بَعِيرِهِ وَغَيَّرَ رَحْلَهُ؛ عَلَامَةً عَلَى السُّـــوءِ ـ وهَذَا مَا عَلَّمَهُ إِيَّاهُ «أَبُو سُفْيَانَ»، ثُمَّ دَخَلَهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَأَخَذَ يَعْلُو الْأَمَاكِنَ الْمُرْتَفِعَةَ وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمَةَ!!

لِيُنَبِّهَ النَّاسَ إِلَى الْخَطَرِ الدَّاهِمِ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَأَبْلَغَهُمُ الرِّسَالَةَ الَّتِي بَعَثَهُ بِهَا «أَبُو سُفْيَانَ».

اسْتَمَعَ النَّاسُ إِلَى التَّفَاصِيلِ، فَثَارَتْ ثَائِرَتُهُمْ، وَغَلَى الدَّمُ فِي عُرُوقِهِمْ، وَظَهَرَ الْغَضَبُ فِي وُجُوهِهِمْ، وَكَلِمَاتُ الِانْتِقَامِ وَالتَّهْدِيدِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَأَفْوَاهِهِمْ:

ـ هَلْ يَجْرُؤُ «مُحَمَّدٌ» عَلَى أَنْ يَتَحَدَّى قُرَيْشًا؟!

وَكَانَ أَكْثَرَ الْمُتَحَمِّسِينَ «أَبُو جَهْلٍ» ـ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ ـ الَّذِي رَاحَ يَجُوبُ (يَطُوفُ) عَلَى النَّاسِ نَافِخًا فِيهِمْ رُوحَ الثَّأْرِ وَالِانْتِقَامِ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الْمَالِ، وَالِانْتِصَارِ لِلْكَرَامَةِ الَّتِي يُوشِكُ مُحَمَّدٌ أَنْ يَخْدِشَهَا.

وَخِلَالَ يَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ اسْتَعَدَّتْ قُرَيْشٌ اسْتِعْدَادًا هَائِلًا، وَخَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ بِجُمُوعِهَا الْغَفِيرَةِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَشُيُوخًا وَأَطْفَالًا.

حَتَّى «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا خَرَجَ مَعَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَيَّرَهُ «أَبُو جَهْلٍ» وَلَحَاهُ (لَامَهُ لَوْمًا شَدِيدًا).

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ «أَبِي سُفْيَانَ» يُبْلِغُهُمْ بِأَنَّ الْقَافِلَةَ قَدْ نَجَتْ، وَاسْتَطَاعَتِ الْإِفْلَاتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا دَاعِيَ لِلِاسْتِمْرَارِ فِي الْخُرُوجِ وَمُتَابَعَةِ الْمَسِيرِ إِلَى الْحَرْبِ.

عِنْدَئِذٍ فَكَّرَ بَعْضُهُمْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ، لَكِنَّ «أَبَا جَهْلٍ» عَارَضَ ذَلِكَ مُعَارَضَةً عَنِيفَةً، وَقَالَ:

ـ وَاللهِ لَا نَعُودُ حَتَّى نَرِدَ (نَأْتِيَ) مَاءَ بَدْرٍ (وَهِيَ قَرْيَةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَسَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ عَلَى مَسَافَةِ ١٥٠ كِيلُو مِتْرًا مِنَ الْمَدِينَةِ)، وَهُنَاكَ نُقِيمُ أَيَّامًا، فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ (الْجِمَالَ) وَنَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ (الْمُغَنِّيَاتُ)، وَلَا تَزَالُ الْعَرَبُ جَمِيعُهَا تَسْمَعُ بِخُرُوجِنَا هَذَا، فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَهَابَنَا وَتَحْتَرِمَنَا.

وَبِهَذَا تَغَلَّبَ رَأْيُ «أَبِي جَهْلٍ» عَلَى الْقَائِلِينَ بِالْعَوْدَةِ، وَمَا عَادَ إِلَّا قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ، وَاسْتَمَرَّ الْآخَرُونَ فِي زَحْفِهِمْ وَسَيْرِهِمْ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَدْرٍ.

وَكَانَ النَّبِـــيُّ ﷺ قَدْ وَصَلَ إِلَى بَدْرٍ قَبْلَهُمْ، كَمَا وَصَلَهُ نَبَأُ خُرُوجِ قُرَيْشٍ لِحِمَايَةِ قَافِلَتِهَا بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالٍ وَمَتَاعٍ، كَمَا فَاتَتْهُ قَافِلَةُ «أَبِي سُـــفْيَانَ» الَّتِي خَرَجَ مَعَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ أَجْلِهَا.

إِزَاءَ هَذَا الْمَوْقِفِ الطَّارِئِ الَّذِي لَمْ يَحْسِـــبْ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ حِسَابًا، كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الِاسْتِشَارَةِ، فَجَمَعَ أَصْحَابَهُ وَقَالَ لَهُمْ:

ـ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ.

فَتَكَلَّمَ أَكْثَرُهُمْ وَأَجْمَعُوا عَلَى الثَّبَاتِ وَعَدَمِ التَّرَاجُعِ، رَغْمَ قِلَّةِ الْعَدَدِ وَضَعْفِ الْعُدَّةِ. وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ «الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو»:

ـ وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَـــا قَاعِدُونَ، وَلَكِنَّا نَقُولُ لَكَ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ.

وَسُرَّ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَوْلِ «الْمِقْدَادِ»، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ:

ـ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ.

فَقَامَ سَيِّدُ الْأَنْصَارِ «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» وَقَالَ:

ـ لَكَأَنَّكَ تَعْنِينَا يَا رَسُولَ اللهِ؟!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ نَعَمْ.

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْصَارَ بَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْحِمَايَةِ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى مُحَارَبَةِ قُرَيْشٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

عِنْدَئِذٍ قَالَ «سَعْدٌ»:

ـ لَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ (تَأَخَّرَ) مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ (صَابِرُونَ) فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ (صَادِقُونَ) عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ (تَطْمَئِنُّ) بِهِ عَيْنُكَ. فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

عِنْدَمَا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْقَوْلَ اسْتَبْشَرَ خَيْرًا، وَاطْمَأَنَّ بَالًا، وَدَعَا لِلْجَمِيعِ بِخَيْرٍ، وَاسْتَوْثَقَ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ.

ثُمَّ بَدَأَ ﷺ الِاسْتِعْدَادَ الْفِعْلِيَّ لِلْحَرْبِ وَالْمُنَاجَزَةِ، فَأَرْسَلَ أَوَّلًا مَنْ يَسْتَكْشِفُ لَهُ أَحْوَالَ الْعَدُوِّ؛ عُدَّتَهُ (سِلَاحَهُ) وَعَدَدَهُ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ بَيْنَ التِّسْعِمِئَةِ وَالْأَلْفِ، وَأَنَّهُمْ عَلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ وَالْحَمَاسِ.

ثُمَّ عَكَفَ ﷺ عَلَى دِرَاسَةِ الْوَضْعِ وَتَرْتِيبِ اللِّقَاءِ وَتَوْزِيعِ الْقُوَّاتِ، وَبَيْنَمَا هُوَ مُنْهَمِكٌ فِي ذَلِكَ مَعَ أَصْحَابِهِ وَأَرْكَانِ حَرْبِهِ، قَالَ لَهُ «الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ»:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ هَذَا مَنْزِلٌ (أَيْ: مَكَانٌ) أَنْزَلَكَهُ اللهُ؟ أَمْ أَنَّهَا الْحَرْبُ وَالرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ بَلْ هِيَ الْحَرْبُ وَالرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ.

فَقَالَ «الْحُبَابُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ـ إِذَنْ، عَلَيْنَا أَنْ نَقْتَرِبَ مِنْ مَكَانِ الْمَاءِ، وَهُنَاكَ نُقِيمُ حَوْضًا نَحْجِزُهُ فِيهِ، وَنَمْنَعُ قُرَيْشًا مِنْهُ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، وَنَسْتَسْقِي وَلَا يَسْتَسْقُونَ.

فَاسْتَحْسَنَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْيَ «الْحُبَابِ»، وَفَعَلَ بِمَا أَشَارَ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ الْعَطَشُ بِالْقُرَشِيِّينَ وَظَمِئُوا ظَمَأً بَالِغًا أَقْسَمَ أَحَدُهُمْ «الْأَسْوَدُ ابْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيُّ» أَنْ يَأْتِيَ الْحَوْضَ الَّذِي حَجَزَ الْمُسْلِمُونَ الْمَاءَ وَرَاءَهُ، فَيَشْرَبَ، أَوْ يَهْدِمَ الْحَوْضَ، أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

وَانْدَفَعَ عَلَى فَرَسِهِ حَتَّى دَنَا مِنَ الْحَوْضِ (اقْتَرَبَ مِنْهُ)، فَخَرَجَ إِلَيْهِ «حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَعَاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ فَقَطَعَ لَهُ رِجْلَهُ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِطَعَنَاتٍ أُخَرَ حَتَّى قَضَى عَلَيْهِ.

فَأَلْهَبَ مَنْظَرُ الدِّمَاءِ الْمُرَاقَةِ حَمَاسَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَثَارَ غَضَبَهُمْ مَوْتُ فَارِسِهِمْ، فَخَرَجَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ هُمْ: «عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ» وَأَخَذُوا يَصُولُونَ وَيَجُولُونَ فِي الْحَلْبَةِ، وَطَلَبُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُخْرِجُوا إِلَيْهِمْ مَنْ يُبَارِزُهُمْ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، لَكِنَّهُمْ رَدُّوهُمْ وَقَالُوا لَهُمْ:

ـ لَيْسَ بِنَا إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ، إِنَّمَا نُرِيدُ أَبْنَاءَ عُمُومَتِنَا.

يَعْنُونَ الْمُهَاجِرِينَ، كَمَا قَالُوا:

ـ يَا مُحَمَّدُ، أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا...

فَبَرَزَ إِلَيْهِمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ: «عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَ«حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَ«عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».

وَتَصَاوَلَ الْفُرْسَانُ وَتَطَاوَلُوا، وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ حَتَّى صَرَعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ وَقَضَوْا عَلَيْهِمْ.

وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ مَا حَلَّ بِفُرْسَانِهِمُ الْأَشِدَّاءِ، اسْتَشَاطُوا (ثَارُوا) غَضَبًا، وَأَخَذُوا بِرَشْقِ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ بِالسِّهَامِ.

لَقَدْ كَانَ حِرْصُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نَبِيِّهِمْ شَدِيدًا وَمَحَبَّتُهُمْ لَهُ فَائِقَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، نَبْنِي لَكَ عَرِيشًا (خَيْمَةً) بَعِيدَةً عَنْ مَرْمَى سِهَامِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى لَا تَطَالَكَ، فَإِنَّ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْكَ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ فِي الْأَمْرِ حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَنَا، فَإِنْ كَانَ النَّصْرُ حَلِيفَنَا كَانَ الْغَرَضَ الْمَنْشُودَ، وَإِنْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ، لَحِقْتَ بِالْمَدِينَةِ وَبِالْمُسْلِمِينَ فِيهَا.

فَبُنِيَ الْعَرِيشُ، وَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَهُ وَاتَّجَهَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ، إِنَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَتَتْ بِخَيْلِهَا وَخُيَلَائِهَا (كِبْرِهَا) تُرِيدُ أَنْ تُكَذِّبَ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ (جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ) فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ.

وَاسْتَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي دُعَائِهِ وَمُنَاجَاتِهِ رَبَّهُ، وَعَيْنَاهُ مُغْرَوْرِقَتَانِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَ يَقِفُ خَلْفَهُ صَدِيقُهُ «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُسَوِّي لَهُ رِدَاءَهُ الَّذِي يَكَادُ يَسْقُطُ عَنْ كَتِفَيْهِ وَيَقُولُ لَهُ مُشْفِقًا عَلَيْهِ:

ـ بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ (أَيْ خَفِّفْ مُنَادَاتَكَ) رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ مُنْجِزُكَ (مُحَقِّقٌ) مَا وَعَدَكَ.

ثُمَّ خَفَقَ ﷺ خَفْقَةً (إِغْفَاءَةً) مِنْ نُعَاسٍ، اسْتَفَاقَ مِنْهَا مُتَهَلِّلَ الْوَجْهِ ضَاحِكَ الثَّغْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ يُحَرِّضُهُمْ (يَدْفَعُهُمْ) عَلَى الْقِتَالِ، وَيُشَدِّدُ عَزَائِمَهُمْ، وَيُبَلِّغُ الثَّابِتِينَ مِنْهُمْ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وَعِظَمِ الْأَجْرِ، وَيَقُولُ لَهُمْ:

ـ وَاللهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ مُقَاتِلٌ مُقْبِلًا (مُقْدِمًا) غَيْرَ مُدْبِرٍ (هَارِبٍ) فَيُقْتَلُ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ.

وَاسْتَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ لِنِدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَانْدَفَعُوا يُوَاجِهُونَ عَدُوَّهُمْ مُوَاجَهَةً لَمْ يَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ.

وَاصْطَدَمَ الطَّرَفَانِ، وَتَلَاقَى الْفَرِيقَانِ، وَتَوَاجَهَ الْأَقْرِبَاءُ؛ الْآبَاءُ بِالْأَبْنَاءِ، وَكَذَلِكَ أَبْنَاءُ الْعُمُومَةِ وَالْخُؤُولَةِ الَّذِينَ خَالَفَتْ بَيْنَهُمُ الْمَبَادِئُ وَفَصَلَتْ بَيْنَهُمُ السُّيُوفُ، وَتَسَاقَطَ الْمُشْرِكُونَ صَرْعَى، وَاحِدًا تِلْوَ (بَعْدَ) الْآخَرِ.

وَأَمَدَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَلَائِكَةِ يُثَبِّتُونَهُمْ وَيُلْقُونَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ، وَعَلَا الْغُبَارُ، وَثَارَ النَّقْعُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ، وَتَرَاكَمَتِ الْجُثَثُ وَالْأَشْلَاءُ، وَدَارَتْ رَحَى مَعْرَكَةٍ رَهِيبَةٍ شَدِيدَةٍ.

فِئَةٌ تُقَاتِلُ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأُخْرَى تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ وَالْكُفْرِ، فِئَةٌ لَا تَرْهَبُ وَلَا تَخَافُ، وَأُخْرَى تَهْلَعُ وَتَخْشَى.

وَفِي أَوْجِ الْمَعْمَعَانِ الْتَقَى «بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ الْحَبَشِيُّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسَيِّدِهِ «أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ» الَّذِي كَانَ يُعَذِّبُهُ وَيُذِيقُهُ مِنَ الظُّلْمِ كُؤُوسًا لِيُحَوِّلَهُ عَنْ دِينِ اللهِ وَعَنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، فَلَا يَتَزَحْزَحُ وَلَا يَتَرَاجَعُ، الْتَقَاهُ وَكَأَنَّهُ كَانَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي الصُّفُوفِ، فَصَرَخَ صَرْخَةً شَدِيدَةً أَرْعَبَتْ «أُمَيَّةَ» وَأَذْهَلَتْهُ:

ـ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ»، رَأْسُ الْكُفْرِ، لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا.

ثُمَّ حَاوَرَهُ حَتَّى قَتَلَهُ.

... وَمَضَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنِيفَةً، انْهَزَمَ فِي نِهَايَتِهَا الْمُشْرِكُونَ شَرَّ هَزِيمَةٍ، وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ قَتِيلًا جُلُّهُمْ (أَكْثَرُهُمْ) مِنَ الرُّؤُوسِ وَالزُّعَمَاءِ.

وَأَدْبَرَ الْبَاقُونَ سِرَاعًا لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ... لَا إِلَى مَالٍ وَلَا إِلَى مَتَاعٍ، وَقَدْ خَلَّفُوا كَثِيرًا مِنَ الْمَغَانِمِ وَرَاءَهُمْ.

وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ وَيُلَاحِقُوهُمْ، فَأَسَرُوا مِنْهُمْ أَيْضًا سَبْعِينَ رَجُلًا.

كَمَا أَمَرَ ﷺ بِحَفْرِ حُفْرَةٍ كَبِيرَةٍ جَعَلَ فِيهَا جُثَثَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ أَصْدَرَ أَمْرَهُ بِقَتْلِ اثْنَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْأَسْرَى لِعَدَاوَتِهِمَا الشَّدِيدَةِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَفَادَى الْآخَرِينَ (أَيْ: دَفَعُوا الْفِدْيَةَ).

وَعَادَ الْمُسْـــلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مُحَمَّلِيـــنَ بِالْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَرَكَهَا الْمُشْـــرِكُونَ وَرَاءَهُمْ، وَأَكَالِيلُ النَّصْرِ تُضَفِّرُ هَامَاتِهِمْ (رُءُوسَهُمْ)، مُعْتَزِّينَ بِتَأْيِيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي أَظْهَرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ أَرْوَعَ اسْتِقْبَالٍ وَأَجْمَلَهُ.

كَمَا عَادَ الْمُشْـــرِكُونَ إِلَى مَكَّةَ يَجُرُّونَ وَرَاءَهُمْ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالْفَشَـــلِ وَالْهَزِيمَةِ، وَلِسَانُ حَالِهِمْ يُرَدِّدُ:

ـ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ، لَمَا أَصَابَنَا الْخِزْيُ...

وَالْآنَ...

كُلَّمَا أَطَلَّ السَّـــابِعَ عَشَـــرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ، يَحْتَفِلُ الْمُسْلِمُونَ بِذِكْرَى ذَلِكَ الْيَوْمِ التَّارِيخِيِّ الْعَظِيمِ.

الْيَوْمِ الَّذِي نَصَرَ اللهُ فِيهِ عِبَادَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، رَغْمَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ؛ جَزَاءَ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى هَذَا الْإِيمَانِ.

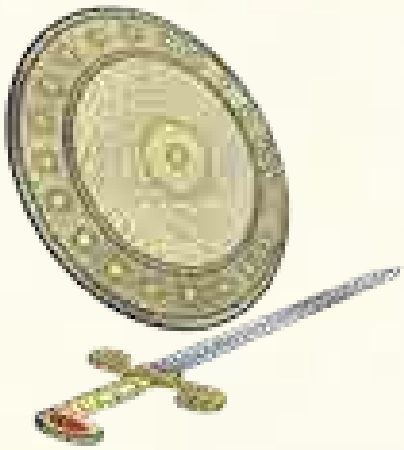

2

غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ

غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

عِنْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَأَقَامَ فِيهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، بَذَلَ جُهْدًا كَبِيرًا فِي تَثْبِيتِ دَعَائِمِ الْأُخُوَّةِ بَيْنَ «الْأَوْسِ» وَ «الْخَزْرَجِ»، وَإِنْهَاءِ حَالَةِ الصِّرَاعِ الْمُمِيتِ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِرًا بَيْنَهُمَا. تِلْكُمَا الْقَبِيلَتَانِ اللَّتَانِ كَانَتَا تَتَقَاتَلَانِ عَلَى الزَّعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ، وَتَتَنَاحَرَانِ مِنْ أَجْلِ السِّيَادَةِ فِيمَا مَضَى، وَاللَّتَانِ أَنْهَكَتْهُمَا الْحُرُوبُ طَوَالَ سِنِينَ كَثِيرَةٍ.

وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْتَفِيدُ الْوَحِيدُ مِنْ هَذَا النِّزَاعِ الْمُسْتَطِيرِ: الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمَدِينَةَ وَضَوَاحِيَهَا، وَيَمْلِكُونَ أَجْوَدَ الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ وَأَخْصَبَهَا، كَمَا كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ ثَرَاءً وَغِنًى.

وَكَانَتْ كُلَّمَا خَفَّتْ حِدَّةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَوْقَدَ الْيَهُودُ نِيرَانَهُ وَنَفَخُوا فِيهِ، وَظَلُّوا بِهَذَا التَّدْبِيرِ وَتِلْكَ السِّيَاسَةِ يُمْسِكُونَ بِمَقَالِيدِ الْأُمُورِ، وَيُسَيْطِرُونَ سَيْطَرَةً تَامَّةً عَلَى الْحَيَاةِ فِيهَا.

وَبَعْدَ أَنْ رَكَّزَ النَّبِيُّ ﷺ دَعَائِمَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَزَالَ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، أَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ جَانِبَ الْيَهُودِ وَيَحْتَاطَ لِمَكْرِهِمْ وَغَدْرِهِمْ وَخُبْثِهِمْ، فَعَقَدَ مَعَهُمُ الْمُعَاهَدَاتِ وَالْمَوَاثِيقَ.

وَكَانَ «بَنُو قَيْنُقَاعَ» أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ غِنًى وَأَوْسَعَهُمْ ثَرَاءً؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا صَاغَةً، يَعْمَلُونَ فِي صِيَاغَةِ الْحُلِيِّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْمُجَوْهَرَاتِ، وَيَحْتَكِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَيُقِيمُونَ فِي ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ.. فِي حَيٍّ هُوَ أَشْبَهُ بِالْحِصْنِ، تُغْلَقُ أَبْوَابُهُ فَيَأْمَنُونَ الشُّرُورَ وَالْعَوَادِيَ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَائِلِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ أَنْ وَقَّعَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاهَدَاتِهِ مَعَ الْيَهُودِ، لَمْ يُبْدُوا لَهُمْ إِلَّا النَّوَايَا الْحَسَنَةَ وَالِالْتِزَامَ التَّامَّ بِمَا أَعْطَوْا عَلَيْهِ الْمَوَاثِيقَ مِنْ حُسْنِ الْجِوَارِ، لَكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُضْمِرُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيُظْهِرُونَ كُلَّ وُدٍّ مُصْطَنَعٍ، وَيَنْتَظِرُونَ الْفُرَصَ لِنَقْضِ الْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدُوهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَذَرِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ نُفُوسَهُمْ وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْغِشِّ وَالْخَدِيعَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ جَاءَتْ نَتَائِجُ غَزْوَةِ «بَدْرٍ» عَلَى غَيْرِ مَا يَشْتَهُونَ وَيُحِبُّونَ؛ إِذْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَحِيقَ الْهَزِيمَةُ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيَكُونَ النَّصْرُ حَلِيفَ قُرَيْشٍ؛ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ.

لِهَذَا لَمْ يَسْـــتَطِيعُوا أَنْ يَكْتُمُوا هَذِهِ الِانْفِعَالَاتِ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ وَالْحِقْدِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

فَكَانُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَأَحْيَائِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ بِلِسَانِ الْغَيْظِ وَالْغَضَبِ، وَيُحْرِقُونَ الْأُرَمَ (يَحُكُّونَ أَضْرَاسَهُمْ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ مِنَ الْغَيْظِ)؛ لِأَنَّهُمْ فَاتَتْهُمْ فُرْصَةُ التَّخَلُّصِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَيَّتُوا النِّيَّةَ عَلَى الْغَدْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ شِيمَتِهِمْ.

وَلَقَدْ حَدَثَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ قَدِمَتْ إِلَى سُوقِ الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ مِنْ عَرَبِ الْبَادِيَةِ، وَكَانَتْ زَوْجَةً لِأَحَدِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ، لِأَجْلِ بَيْعِ بَعْضِ الْإِبِلِ (الْجِمَالِ) وَالْغَنَمِ، فَبَاعَتْهَا، وَقَصَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ دُكَّانَ صَائِغٍ يَهُودِيٍّ لِتَشْـــتَرِيَ بَعْضَ الْحُلِيِّ.

فَرَآهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَتَجَمَّعُوا حَوْلَهَا، وَأَخَذُوا يُرَاوِدُونَهَا (يُحَاوِلُونَ) أَنْ تَرْفَعَ حِجَابَهَا، بِقَصْدِ السُّـــخْرِيَةِ مِنْهَا وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا، لَكِنَّهَا رَفَضَتْ وَأَصَرَّتْ، فَغَافَلَهَا صَاحِبُ الدُّكَّانِ وَرَبَطَ طَرَفَ ثَوْبِهَا بِالْمَقْعَدِ الَّذِي كَانَتْ تَقْتَعِدُهُ (تَجْلِسُ عَلَيْهِ)، وَلَمَّا أَرَادَتِ الِانْصِرَافَ وَهَمَّتْ بِالْقِيَامِ انْخَلَعَ ثَوْبُهَا وَانْكَشَفَ حِجَابُهَا، فَتَضَاحَكَ الْقَوْمُ مِنْهَا.

فَوَلْوَلَتْ وَصَاحَتْ وَاسْـــتَنْجَدَتْ، فَوَثَبَ (هَجَمَ) رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُـــودِيِّ فَقَتَلَهُ، وَلَمَّا حَاوَلَ الْخُرُوجَ بِالْمَرْأَةِ مِنَ السُّـــوقِ، صَدَّهُ الْيَهُودُ وَمَنَعُوهُ، وَتَأَلَّبُوا (تَجَمَّعُوا) عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ.

وَسَرَتْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ (الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ) صَيْحَاتُ النَّجْدَةِ وَالِاسْتِنْصَارِ، وَاسْتَصْرَخَ كُلُّ قَوْمٍ أَصْحَابَهُمْ، فَتَجَمَّعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ هِيَ الشَّرَارَةَ الَّتِي انْطَلَقَتْ فَأَشْعَلَتِ الْمَوْقِفَ، وَسَعَّرَتْ نِيرَانَ الْحَرْبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ، وَكَانَ مِنْ جَرَّائِهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْيَهُودِ بِنَقْضِهِمُ الْعَهْدَ وَنَكْثِهِمُ الْوَعْدَ وَهُزْئِهِمْ (اسْتِهْزَائِهِمْ) مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَدِينِهِمْ.

وَلَمَّا وَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

ـ مَا عَلَى هَذَا أَقْرَرْنَاهُمْ.

فَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ إِعْلَانًا بِفَسْخِ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي أَبْرَمَهَا مَعَهُمْ، فَتَبَرَّأَ «عُبَادَةُ ابْنُ الصَّامِتِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مُحَالَفَتِهِ لَهُمْ، وَأَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ وَالْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّ «عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» الْيَهُودِيَّ الْمُنَافِقَ ظَلَّ عَلَى وَلَائِهِ لَهُمْ وَتَحَالُفِهِ مَعَهُمْ وَارْتِبَاطِهِ بِهِمْ.

كَمَا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾.

وَلَمَّا اسْتَوْثَقَ الْيَهُودُ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَوْفَ يُنْزِلُ بِهِمْ عِقَابَهُ، فَزِعُوا مِنْ بَطْشَةِ الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ إِلَى حُصُونِهِمُ الْمَنِيعَةِ (الْقَوِيَّةِ)، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَهَا وَاحْتَمَوْا دَاخِلَهَا. وَانْتَظَرُوا مَا سَوْفَ يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ مِنَ الْأَحْدَاثِ.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ إِنْذَارًا يَقُولُ فِيهِ:

ـ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، احْذَرُوا مِنَ اللهِ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ النِّقْمَةِ (يُذَكِّرُهُمْ بِيَوْمِ بَدْرٍ) وَأَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ، وَعَهِدَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْكُمْ بِهِ.

لَكِنَّ الْيَهُودَ بِدَافِعٍ مِنْ حِقْدِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ وَغَدْرِهِمْ وَغُرُورِهِمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْذَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَعْبَأُوا بِهِ، بَلْ أَجَابُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ:

ـ يَا مُحَمَّـــدُ، إِنَّكَ تَرَى أَنَّنَا قَوْمُكَ (يَعْنُونَ قُرَيْشًـــا)، لَا يَغُرَّنَّكَ أَنَّكَ لَقِيتَ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَـــرْبِ فَأَصَبْتَ (نِلْتَ) مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا ـ وَاللهِ ـ لَوْ حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ!

وَلَقَدْ كَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا دَلِيلًا عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، لَا رَيْبَ وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَشْجَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَأَشَدَّهُمْ بَغْيًا، فَلَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرَبًا أَنْ يَرُدُّوا هَذَا الرَّدَّ الْعَنِيفَ الْقَاسِيَ الَّذِي يَنْضَحُ كِبْرًا وَتَجَبُّرًا وَتَعَالِيًا.

أَمَامَ هَذَا الرَّدِّ الْيَهُودِيِّ لَمْ يَجِدْ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ مَفَرًّا مِنَ اتِّخَاذِ الْإِجْرَاءِ الَّذِي يَحْفَظُ لِلْمُسْلِمِينَ كَرَامَتَهُمْ وَعِزَّتَهُمْ، وَيَصُونُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَوَحْدَتَهُمْ وَهَيْبَتَهُمْ، فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهِـــمْ مُحَارِبًا وَمُؤَدِّبًا؛ حَتَّى لَا يَعُودُوا لِمِثْلِ مَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ أَوَّلَ الْأَمْرِ إِلَى الْإِسْـــلَامِ فَإِنْ هُمْ أَسْـــلَمُوا فَقَدْ حَفِظُوا أَنْفُسَـــهُمْ، وَحَافَظُوا عَلَى أَمْوَالِهِـــمْ وَمُمْتَلَكَاتِهِمْ. وَإِنْ هُمْ رَفَضُوا وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا فَلْيَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

فَاجْتَمَعَ ﷺ بِأَصْحَابِهِ لِيَتَشَاوَرُوا فِي وَضْعِ الْخُطَّةِ التَّفْصِيلِيَّةِ لِحَرْبِ «بَنِي قَيْنُقَاعَ»، فَأَبْدَى كُلٌّ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ رَأْيَهُ، وَأَظْهَرَ فِكْرَتَهُ وَعَرَضَ مَشُورَتَهُ، وَبَعْدَ أَنْ تَبَلْوَرَ الْأَمْرُ وَانْجَلَى، جَهَّزَ ﷺ جُنْدَهُ وَأَعَدَّ أَصْحَابَهُ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى حُصُونِ «بَنِي قَيْنُقَاعَ» الَّتِي احْتَمَوْا دَاخِلَهَا.

وَدَفَعَ ﷺ بِاللِّوَاءِ إِلَى عَمِّهِ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الَّذِي مَضَى فِي الْمُقَدِّمَةِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْحُصُونِ.

وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْحِصَارَ...

لَوْ كَانَ فِي الْيَهُودِ شَجَاعَةٌ لَوَاجَهُوا جَيْشَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ جُبَنَاءُ، لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْحُرُوبِ إِلَّا الْغَدْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْخِيَانَةَ، وَالدَّسَّ وَالْوَقِيعَةَ، فَاخْتَبَأُوا دَاخِلَ حُصُونِهِمْ وَاحْتَمَوْا فِيهَا، وَطَالَ أَمَدُ الْحِصَارِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَالَّذِي جَعَلَهُمْ يَقِفُونَ هَذَا الْمَوْقِفَ كَثْرَةُ الْمَئُونَةِ عِنْدَهُمْ مِنْ جِهَةٍ، وَأَمَلًا فِي أَنْ يَدِبَّ الْوَهَنُ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْيَأْسُ إِلَى نُفُوسِهِمْ، فَيَمَلُّوا مِنْ مَوْقِفِهِمْ هَذَا فَيَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ.

وَخَيَّبَ اللهُ تَعَالَى ظَنَّهُمْ، فَشَدَّدَ النَّبِيُّ ﷺ الْحِصَارَ عَلَيْهِمْ، وَمَنَعَ عَنْهُمْ كُلَّ مَئُونَةٍ وَطَعَامٍ، فَعَانَوْا مِنْ ذَلِكَ عَنَاءً شَدِيدًا، وَتَهَاوَى جُنُودُهُمْ تَحْتَ وَطْأَةِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ، وَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الشَّدِيدَ.

عِنْدَهُا طَلَبُوا الِاسْتِسْـــلَامَ، وَكَلَّفُوا «عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» لِيُفَاوِضَ بِاسْمِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ .

فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَائِلًا:

ـ يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ.

فَأَعْـــرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّةِ، حَتَّـــى تَكَرَّرَ مِنْهُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَخِيرًا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ (فَتْحَةِ الثَّوْبِ عِنْدَ الْعُنُقِ) قَمِيصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَاجِيًا مُتَشَـــفِّعًا، وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَامَةَ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِسْلَامِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَقَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ:

ـ وَيْحَكَ، أَرْسِلْنِي (اتْرُكْنِي).

فَقَالَ لَهُ «ابْنُ أُبَيٍّ»:

ـ وَاللهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِـــنَ فِي مَوَالِيَّ، فَإِنَّهُمْ أَعِزَّتِي، أَرْبَعُمِئَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثُمِئَةِ دَارِعٍ (لَابِسِ الدِّرْعِ)، وَقَـــدْ مَنَعُونِي (حَفِظُونِي) مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْـــوَدِ (جَمِيعِ النَّاسِ)، وَتَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ (يَوْمٍ وَاحِدٍ)! إِنِّي وَاللهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ (الْمُسْتَقْبَلَ مِنَ الْأَيَّامِ).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَئِذٍ لِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا بِجَانِبِهِ:

ـ خَلُّوهُمْ (اتْرُكُوهُمْ)، لَعَنَهُمُ اللهُ، وَلَعَنَهُ مَعَهُمْ.

وَبِهَذَا عَفَاهُمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ، وَقَالَ لِـ «عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ»:

ـ خُذْهُمْ لَا بَارَكَ اللهُ فِيهِمْ.

ثُمَّ أَصْدَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ بِإِجْلَائِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ شَرْطَ أَنْ يَتْرُكُوا الْأَمْوَالَ وَالسِّلَاحَ، وَوَكَّلَ بِهَذَا الْعَمَلِ وَالْإِشْرَافِ عَلَيْهِ «عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ إِذْ كَانَ لَهُمْ حَلِيفًا فِي السَّابِقِ، وَأَعْطَاهُمْ مُهْلَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

وَمَا صَدَّقَ الْيَهُودُ بِنَجَاةِ أَرْوَاحِهِمْ وَسَلَامَةِ أَبْدَانِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ جُبَنَاءُ يَحْرِصُونَ عَلَى الْحَيَاةِ وَلَوْ كَانَتْ ذَلِيلَةً مُهَانَةً، فَكَانُوا يُعَجِّلُونَ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ سِرَاعًا خِفَافًا، وَمَا انْقَضَتِ الْمُهْلَةُ الْمُعْطَاةُ لَهُمْ حَتَّى كَانَتْ دِيَارُهُمْ خِلْوًا مِنَ النَّاسِ.

فَاسْتَوْلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ وَدُورِهِمْ، فَخَمَّسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ (أَيْ قَسَّمَهُ أَخْمَاسًا)، وَوَزَّعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْغَنَائِمِ، وَحَازَ لِنَفْسِهِ الْخُمُسَ الْبَاقِيَ يُنْفِقُهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

خَرَجَ يَهُودُ «بَنِي قَيْنُقَاعَ» مِنَ الْمَدِينَةِ تُلَاحِقُهُمْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ بِعَدَمِ الْبَرَكَةِ، وَنَزَلُوا بِبَلْدَةٍ عَلَى حُدُودِ الشَّامِ تُسَمَّى (أَذْرُعَاتٍ) فَأَقَامُوا فِيهَا، وَلَمْ يَدُرْ عَلَيْهِمُ الْحَوْلُ (السَّنَةُ) حَتَّى هَلَكُوا جَمِيعًا.

وَبِهَذَا طُوِيَتْ صَفْحَةٌ مِنْ صَفَحَاتِ غَدْرِ الْيَهُودِ وَمَكْرِهِمْ، وَنَصَرَ اللهُ

الْمُؤْمِنِيـــنَ الصَّادِقِينَ عَلَيْهِمْ، كَمَا تَرَكَتْ هَذِهِ الغَزْوَةُ أَطْيَبَ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، الَّذِينَ مَا عَادُوا لِيَخْشَوْا أَوْ يَخَافُوا الْيَهُودَ أَبَدًا.

وَلَقَـــدْ أَثَّرَ ذَلِكَ فِي الْعَـــرَبِ الْمُقِيمِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ؛ فَأَسْـــرَعُوا وَآمَنُوا بِرَسُـــولِ اللهِ ﷺ وَبِدَعْوَتِهِ، وَأَسْلَسُـــوا قِيَادَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا حَرْبًا شَعْوَاءَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، كَمَا انْتَقَلَ الْخَبَرُ إِلَى مَكَّةَ فَاسْتَاءَتْ لَهُ قُرَيْشٌ أَيَّمَا اسْتِيَاءٍ، وَاعْتَبَرَتْ هَذَا النَّصْرَ الَّذِي حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْيَهُودِ إِيذَانًا لَهَا بِدُنُوِّ هَزِيمَتِهَا، وَبِدَايَةِ مَرْحَلَةِ التَّقَلُّصِ لِنُفُوذِهَا وَغُرُوبِ شَـــمْسِ سِيَادَتِهَا وَزَعَامَتِهَا.

وَمَضَتْ قَافِلَةُ الْإِيمَانِ فِي طَرِيقِهَا الَّذِي رَسَـــمَهُ اللهُ لَهَا مِنَ النَّصْرِ وَالْعِزِّ وَالسُّؤْدَدِ.

3

غَزْوَةُ غَطَفَانَ

غَزْوَةُ غَطَفَانَ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾.

كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ مُكَلَّفُونَ بِنَقْلِ الْأَخْبَارِ إِلَيْهِ، يَرْصُدُونَ كُلَّ حَرَكَةٍ، وَيَرْقُبُونَ كُلَّ تَجَمُّعٍ، ثُمَّ يُبَلِّغُونَ مَا يَعْلَمُونَ إِلَيْهِ ﷺ، وَذَلِكَ مِنْ حُسْنِ تَخْطِيطِهِ وَتَدْبِيرِهِ حِفَاظًا عَلَى الدَّعْوَةِ، وَحِرْصًا عَلَى ضَمَانِ سَلَامَتِهَا وَوُصُولِهَا إِلَى غَايَاتِهَا وَأَهْدَافِهَا.

جَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَحَدُ هَؤُلَاءِ «الْأُمَنَاءِ» لِيَنْقُلَ إِلَيْهِ أَنَّ قَبِيلَتَيْنِ مِنْ قَبَائِلِ نَجْدٍ فِي وَسَطِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُمَا: «بَنُو ثَعْلَبَةَ» وَ«بَنُو مُحَارِبٍ» يَتَجَمَّعُونَ وَيَتَهَيَّئُونَ بِقِيَادَةِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانِهِمُ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ اسْمُهُ «دَعْثُورُ» الْمُحَارِبِيُّ لِيَنْقَضُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُبَاغِتُوهُمْ فِي «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ».

وَلَقَدْ كَانَ «دَعْثُورُ» هَذَا يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبًا مَشْحُونًا بِالْحِقْدِ الدَّفِينِ وَالْغُرُورِ الْأَجْوَفِ وَالْكِبْرِيَاءِ الْفَارِغِ، وَكَانَتْ شُهْرَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ كَانَ رِعْدِيدًا جَبَانًا لَا يَسْتَطِيعُ الصُّمُودَ وَالْمُوَاجَهَةَ.

سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْخَبَرَ، وَأَصْغَى إِلَى نَاقِلِهِ، ثُمَّ دَعَا أَصْحَابَهُ لِلِاجْتِمَاعِ، وَسَـــرَدَ عَلَى مَسَامِعِهِمْ مَا نَمَا إِلَيْهِ وَاسْتَشَـــارَهُمْ، وَبَعْدَ التَّدَاوُلِ قَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا لِمُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ وَمُجَابَهَتِهِ فِي عُقْرِ دَارِهِ وَاسْتِبَاقِهِ فِي الْغَزْوِ، وَمُفَاجَأَتِهِ... فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْعَى لِلْهَيْبَةِ، وَأَوْقَعَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ جَمِيعًا.

ثُمَّ اسْتَنْفَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْـــلِمِينَ وَنَدَبَهُمْ لِلْخُرُوجِ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِلْقِتَالِ مِنْهُمْ فَلْيُعِدَّ نَفْسَـــهُ وَسِلَاحَهُ وَرَكُوبَهُ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَقَاءَ فِي «الْمَدِينَةِ» فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، فَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ أَرْبَعُمِئَةٍ وَخَمْسُـــونَ رَجُلًا، بَعْضُهُمْ فُرْسَانًا وَبَعْضُهُمْ مُشَاةً.

وَلَمَّا اكْتَمَلَ الِاسْتِعْدَادُ، أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الْجَيْشِ بِالْمَسِيرِ.. عَلَى الْمُقَدِّمَةِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ مُتَعَطِّشَةٌ أَرْوَاحُهُمْ لِلذَّوْدِ عَنْ حِيَاضِ الدِّينِ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الْعَقِيدَةِ، وَالتَّصَدِّي لِكُلِّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يُطْفِئَ نُورَ اللهِ الَّذِي عَمَّ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيُوشِكُ أَنْ يَنْتَشِرَ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ كُلِّهِ.

كَانَ ذَلِكَ فِي الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَامِ الثَّالِثِ لِلْهِجْرَةِ.

لَمْ يَكُنْ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَبَدًا قَبْلَ أَنْ يُوَكِّلَ عَنْهُ نَائِبًا فِيهَا، يَقُومُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَيَرْعَى شُئُونَهُمْ، وَيَؤُمُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ. وَيَخْتَارُهُ دَوْمًا مِمَّنْ يُرْضِي اللهَ وَالرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ.

وَأَمَّرَ عَلَى «الْمَدِينَةِ» فِي هَـــذِهِ الغَزْوَةِ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِثِقَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَغَادَرَ الرَّكْبُ الْمَيْمُونُ «الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ» مُتَّجِهًا إِلَى «نَجْدٍ»، يَرْعَاهُ اللهُ تَعَالَى وَتَحُفُّ بِهِ مَلَائِكَتُهُ، وَظَلُّوا فِي سَيْرِهِمْ أَيَّامًا، حُدَاؤُهُمُ الْأَذَانُ، وَسَلْوَتُهُمْ نِدَاءُ الرَّحْمَنِ؛ لَا يُرْهِقُهُمْ شَـــيْءٌ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ غَايَتِهِمْ صَعْبٌ، تَعْلُو بِهِمُ الْهِضَابُ وَالْجِبَالُ وَتَسْفُلُ بِهِمُ الْوُدْيَانُ وَالْقِيعَانُ.

وَمَـــا زَالُوا يَصِلُونَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ حَتَّى بَاتُوا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الدِّيَارِ، دِيَارِ الْقَـــوْمِ الْفَاجِرِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وَحِينَمَا عَرَفَ «بَنُو ثَعْلَبَةَ» وَ«بَنُو مُحَارِبٍ» بِاقْتِرَابِ جَيْشِ الْمُسْـــلِمِينَ، رُهْبَانِ اللَّيْلِ وَفُرْسَانِ النَّهَارِ، دَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الذُّعْرُ، وَأَصَابَهُمُ الْخَوْفُ.

وَلِسَائِلٍ أَنْ يَسْأَلَ: أَيْنَ شَجَاعَتُهُمْ وَفُرُوسِيَّتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَدَّعُونَهَا؟ بَلْ أَيْنَ غُرُورُهُمُ الَّذِي مَنَّاهُمْ بِمُهَاجَمَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ؟ بَلْ أَيْنَ شَيْطَانُهُمْ وَكَبِيرُهُمُ الَّذِي تَوَهَّـــمَ أَنَّهُ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَقْتُلَ مُحَمَّدًا، وَيُبِيدَ الْمُسْـــلِمِينَ، وَيَقْضِيَ عَلَى الْإِسْلَامِ؟! ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

لَقَدْ كَانَ مِنْ عَلَامَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ نُصِرَ بِالرُّعْبِ، فَمَا إِنْ يَسْـــمَعِ الْأَعْدَاءُ بِهِ وَبِخُرُوجِهِ حَتَّى تَنْهَارَ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ، وَتَتَلَاشَى عَزَائِمُهُمْ.

وَأَشَـــارَ «دَعْثُورُ» عَلَى قَوْمِهِ أَنْ يَنْصَرِفُوا إِلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ بِذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَـــائِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهَا وَيَمْتَنِعُونَ، وَلَا يَتْرُكُوا فِي دِيَارِهِمْ وَأَمَاكِنِ إِقَامَتِهِمْ إِلَّا مَا لَيْسُوا بِحَاجَةٍ لَهُ، أَوْ لَا قِيمَةَ لَهُ تُذْكَرُ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْـــلَامِيُّ يَغُذُّ السَّيْرَ وَقَدْ أَصْبَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ، حَتَّى لَمَحَ قَائِدُ مُقَدِّمَتِهِمْ خَيَالَ إِنْسَانٍ يَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، فَأَسْرَعَ وَرَاءَهُ حَتَّى بَلَغَهُ، ثُمَّ أَلْقَى الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَعَادَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

كَانَ الرَّجُلُ يُدْعَى «حَبَّارَ»، فَاسْتَنْطَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَاسْتَخْبَرَهُ خَبَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ:

ـ لَنْ يُلَاقُوكَ، سَمِعُوا بِمَسِيرِكَ وَهَرَبُوا فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَأَنَا سَائِرٌ مَعَكَ.

ثُمَّ دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ للهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِمُحَمَّدٍ بِالرِّسَالَةِ، ثُمَّ نَادَى ﷺ «بِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُعَلِّمَ الرَّجُلَ أُمُورَ الدِّينِ وَمَبَادِئَ الْإِسْلَامِ، وَتَابَعُوا السَّيْرَ...

رَاحَ «حَبَّارُ» يَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مُقَدِّمَتِهِمْ؛ يَدُلُّهُمْ عَلَى الطُّرُقِ وَأَسْهَلِهَا مَسْـــلَكًا حَتَّى بَلَغُوا مُجْتَمَعَ مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: «ذُو أَمَرٍ»، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعَسْـــكِرَ الْجَيْشُ هُنَاكَ، إِذْ وَجَدَ الْفُرْصَةَ مُوَاتِيَةً لِلرَّاحَةِ عِنْدَ الْمَاءِ؛ كَيْ يَأْخُذَ الْجُنْدُ قِسْطًا مِنْهَا، فَإِذَا مَا وَاجَهُوا عَدُوَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ كَانُوا فِي أَتَمِّ اسْتِعْدَادِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ.

تَوَقَّفَ النَّاسُ وَأَقَامُوا لِلرَّاحَةِ، وَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ بَعْدَ أَنْ أَجْهَدَهُمُ السَّيْرُ الْمُتَوَاصِلُ، وَتَنَاوَبَ بَعْضُهُمُ الْحِرَاسَـــةَ عَلَى أَطْرَافِ الْمُعَسْـــكَرِ خَوْفًا مِنَ الْمُبَاغَتَةِ وَالْمُفَاجَأَةِ، وَلَقَدْ كَانَ لَيْلُ الْمُسْلِمِينَ، كَكُلِّ لَيَالِيهِمْ، صَلَاةً وَعِبَادَةً وَتَهَجُّدًا وَدُعَاءً وَذِكْرًا، وَانْصِرَافًا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِكُلِّ جَوَارِحِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ؛

وَخُضُوعًا وَتَذَلُّلًا إِلَيْهِ تَعَالَى؛ كَيْ يُثَبِّتَهُمْ وَيُوَفِّقَهُمْ وَيُؤَيِّدَهُمْ وَيَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ.

وَمَعَ الصَّبَاحِ تَجَمَّعَتْ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ غُيُومٌ دَاكِنَةٌ شَدِيدَةُ السَّوَادِ، ثُمَّ هَبَّتْ رِيحٌ بَارِدَةٌ، وَأَخَذَ الْمَطَرُ يَهْطِلُ بِغَزَارَةٍ حَتَّى سَالَتْ بِهِ الْأَوْدِيَةُ وَتَجَمَّعَ فِي الْقِيعَانِ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ بِشْرًا وَحُبُورًا عَلَامَةَ الرِّضَا وَالسُّرُورِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْمَطَرَ كَانَ نَذِيرَ خَيْرٍ وَعَلَامَةَ نَصْرٍ.

وَلَقَدِ ابْتَلَّتْ ثِيَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَثِيَابُ أَصْحَابِهِ، فَانْتَحَى عَنِ الْقَوْمِ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَنَزَعَ قَمِيصَهُ وَعَلَّقَهُ فِي غُصْنِ شَجَرَةٍ لِيَجِفَّ، وَجَلَسَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ لِيَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَغْبَةً مِنْهُ فِي إِغْفَاءَةٍ بَسِيطَةٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَمْضَى لَيْلَهُ سَاهِرًا لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ حِرْصًا عَلَى سَلَامَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَتْ جُمُوعُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ «بَنِي ثَعْلَبَةَ» وَ«بَنِي مُحَارِبٍ» يُرَاقِبُونَ كُلَّ ذَلِكَ، وَيُسَجِّلُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ. وَمَا إِنْ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِ انْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ قَلِيلًا، حَتَّى أَقْبَلُوا عَلَى فَارِسِهِمْ وَقَائِدِهِمْ «دَعْثُورَ» يُنَبِّئُونَهُ بِمَا رَأَوْا، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي اقْتِنَاصِ الْفُرْصَةِ وَالْإِغَارَةِ عَلَى «مُحَمَّدٍ» لِيَفْتِكَ بِهِ، وَيَقْضِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُغِيرُوا مِنْ وَرَائِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونَ هَذِهِ فُرْصَتَهُمُ الَّتِي لَا تُعَوَّضُ.

وَدَاعَبَتْ خَيَالَ «دَعْثُورَ» أَحْلَامُ الْيَقَظَةِ، وَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ زَعِيمًا لِلْعَرَبِ بَعْدَ مَقْتَلِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ ، وَالْمَجْدَ الَّذِي سَيَتَمَتَّعُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَمَحَ بِهِ

الْخَيَالُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي رَأَى فِيهِ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى كُلِّ الْقَبَائِلِ لَا يُنَازِعُهُ مُنَازِعٌ.

وَمَا هِيَ إِلَّا هُنَيْهَةٌ حَتَّى وَثَبَ عَلَى جَوَادِهِ فَامْتَطَى صَهْوَتَهُ وَقَدْ تَوَشَّحَ بِسَيْفِهِ، وَمَضَى مُسْرِعًا حَتَّى أَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَأَخَذَ يَدْنُو بِكُلِّ خِفَّةٍ وَتُؤَدَةٍ حَتَّى وَقَفَ عِنْدَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَاهِرًا سَيْفَهُ قَائِلًا:

ـ مَنْ يَحْمِيكَ مِنِّي يَا «مُحَمَّدُ»؟

لَمْ يُفَاجَأْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُذْعَرْ، بَلْ قَالَ قَوْلَةَ الْمُؤْمِنِ الْوَاثِقِ بِرَبِّهِ:

ـ اللهُ...

هُنَا، شَعَرَ «دَعْثُورُ» بِالرُّعْبِ يَتَمَشَّى فِي كُلِّ أَنْحَاءِ جِسْمِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَالْعَرَقُ الْبَارِدُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبْهَتِهِ، وَفَرَائِصُهُ تَرْتَعِدُ، وَأَحَسَّ كَأَنَّ يَدًا قَوِيَّةً تَدْفَعُهُ فِي صَدْرِهِ دَفْعَةً شَدِيدَةً، فَيَهْتَزُّ وَيَقَعُ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ يَخِرُّ هُوَ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ!

فَالْتَقَطَ النَّبِيُّ ﷺ السَّيْفَ وَهَبَّ وَاقِفًا وَرَفَعَهُ، وَقَالَ لِـ «دَعْثُورَ»:

ـ وَأَنْتَ، مَنْ يَمْنَعُكَ (يَحْمِيكَ) مِنِّي الْآنَ؟

فَأَجَابَ «دَعْثُورُ» وَالْخَوْفُ يَمْلَأُ قَلْبَهُ، وَلِسَانُهُ يَتَلَجْلَجُ وَتَتَعَثَّرُ بِهِ الْكَلِمَاتُ:

ـ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

لَقَدْ أَسْلَمَ «دَعْثُورُ» وَشَهِدَ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِمُحَمَّدٍ ﷺ بِالرِّسَالَةِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ طَمْأَنَهُ، وَهَدَّأَ

رَوْعَهُ، وَأَذْهَبَ خَوْفَهُ، وَرَغَّبَهُ فِي دِينِ اللهِ، ثُـــمَّ تَرَكَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَاهُ بِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَعَادَ «دَعْثُورُ» إِلَى عَشِـــيرَتِهِ بِوَجْهٍ جَدِيدٍ وَقَلْبٍ جَدِيدٍ، عَادَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الصَّارِمِ الَّذِي غَادَرَهُمْ بِهِ، وَعَـــادَ بِغَيْرِ الْقَلْبِ الْحَاقِدِ الَّذِي تَرَكَهُمْ بِهِ، عَادَ بِوَجْهٍ يُضِيئُهُ نُورُ الْإِيمَانِ، وَقَلْبٍ تَمْلَؤُهُ كَلِمَةُ الرَّحْمَانِ.

وَأَخَذَ يُعَرِّفُهُمْ حَقِيقَةَ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَصَحْبِهِ، وَحَقِيقَةَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ آمَنَ بِهِ لِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

كَانَ «دَعْثُورُ» يَتَحَدَّثُ وَصُورَةُ الْوَاقِعَـــةِ الَّتِي جَرَتْ لَهُ لَا تُفَارِقُ عَيْنَيْهِ وَمُخَيِّلَتَهُ، وَكَانَ فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ يَنْبُعُ مِـــنْ مَوْقِفِ الْعَفْوِ الَّذِي وَقَفَهُ مَعَهُ «مُحَمَّدٌ» ﷺ.

وَاسْـــتَمَرَّ يَرْوِي لِأَصْحَابِهِ خَبَرَ ذَلِكَ الطَّيْفِ الَّذِي انْتَصَبَ أَمَامَهُ بِقَامَتِهِ الْمَدِيدَةِ وَيَدِهِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي دَفَعَهُ بِهَا، فَأَوْقَعَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَأَسْـــقَطَ السَّيْفَ مِنْ يَدِهِ.

كَانَ الْقَوْمُ يَسْتَمِعُونَ إِلَى فَارِسِهِمُ الَّذِي عَوَّلُوا عَلَيْهِ فِي الْحَرْبِ، وَعَقَدُوا عَلَى شَجَاعَتِهِ الْآمَالَ، وَالَّذِي حَفَّزَهُمْ وَجَمَعَهُمْ لِقِتَالِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، فَمَا وَسِـــعَ أَكْثَرَهُمْ تِجَاهَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ وَتِجَاهَ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ «دَعْثُورُ» إِلَّا أَنْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ.

وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ مُذْعِنِينَ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

فَحَمِدَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ وَشَكَرَهُ، وَتَرَكَ فِي الْقَوْمِ مَنْ يُفَقِّهُهُمْ فِي دِينِ اللهِ وَيُبَصِّرُهُمْ شُـــئُونَهُ وَأُمُورَهُ، وَعَادَ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، وَقَدْ تَنَاقَلَتِ الْأَفْوَاهُ أَخْبَارَ غَزْوَتِهِ هَذِهِ وَمَا جَرَى فِيهَا، وَسَرَتْ أَنْبَاؤُهَا فِي طُولِ الْجَزِيرَةِ وَعَرْضِهَا، حَتَّى عَمَّتْ كُلَّ النَّاسِ.

عَادَ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهَا بِجَيْشِهِ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، وَقَدْ أَعَزَّهُ اللهُ وَأَيَّدَهُ وَنَصَرَهُ وَأَظْفَرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَكُلِّ عَدُوٍّ بَعْدَهُ.

وَيَجْدُرُ بِنَا أَنْ لَا نَمُرَّ بِهَذِهِ الغَزْوَةِ دُونَ أَنْ نُشِـــيرَ إِلَى أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ كَانَا سَبَبًا مُبَاشِرًا مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ :

أَوَّلُهُمَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «وَنُصِرْتُ بِالرُّعْـــبِ»، فَإِنَّ حَقِيقَةَ هَذَا الْقَوْلِ تَبْـــدُو وَاضِحَةً جَلِيَّةً فِي أَكْثَرِ غَزَوَاتِـــهِ ﷺ، إِذْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ وَالْهَلَعَ وَالْخَوْفَ مِنْ صَيْحَةِ الْمُسْلِمِينَ «اللهُ أَكْبَرُ»، وَلَقَدْ صَدَقَ فِيهِمْ وَصْفُ الْقَائِلِ: إِنَّهُمْ رُهْبَانُ اللَّيْلِ وَفُرْسَانُ النَّهَارِ.

وَثَانِي الْأَمْرَيْنِ: أَنَّ مَوَاقِفَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ كَانَتْ سَبِيلًا إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ، تَسْتَحْوِذُ عَلَيْهَا وَتَأْسِرُهَا وَتَمْتَلِكُهَا، ثُمَّ تَحْتَوِيهَا فِي مَوْكِبِ الْإِيمَانِ.

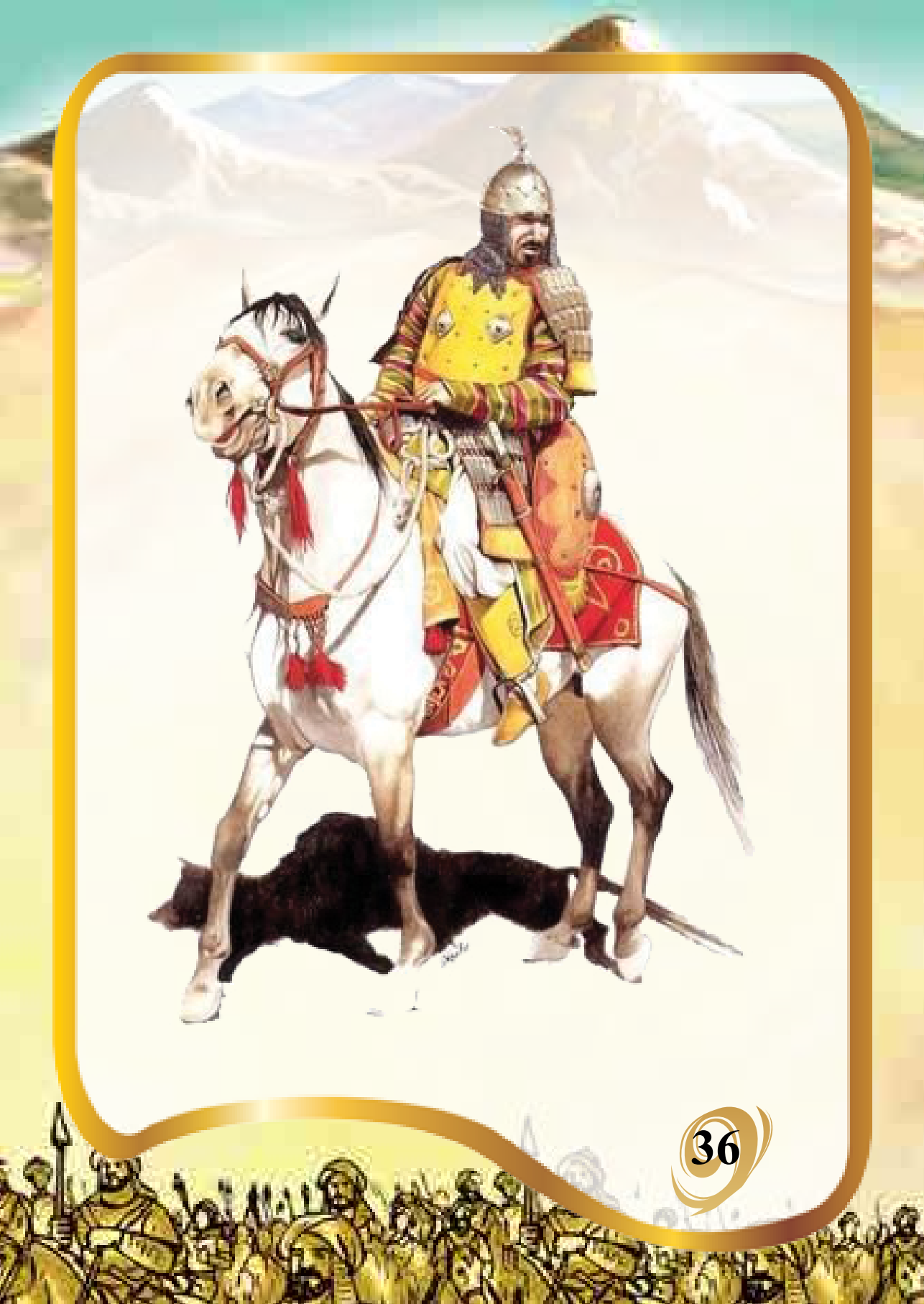

4

غَزْوَةُ أُحُدٍ

غَزْوَةُ أُحُدٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

مَا إِنْ عَادَ الْقُرَشِيُّونَ الْمَهْزُومُونَ فِي غَزْوَةِ «بَدْرٍ الْكُبْرَى» إِلَى مَكَّةَ، حَتَّى أَخَذَ زُعَمَاؤُهُمْ وَالْمَوْتُورُونَ مِنْهُمْ يُقْسِمُونَ الْأَيْمَانَ الْمُغَلَّظَةَ عَلَى الِانْتِقَامِ لِشَرَفِهِمُ الَّذِي ثُلِمَ وَلِكَرَامَتِهِمُ الَّتِي هُدِرَتْ.

وَحَلَفَ «أَبُو سُفْيَانَ» أَنْ لَا يَتْرُكَ الْمَاءَ يَمَسُّ جَسَدَهُ مَا لَمْ يَثْأَرْ لِأَقْرِبَائِهِ الَّذِينَ قَضَى عَلَيْهِمْ «مُحَمَّدٌ» ﷺ وَصَحْبُهُ.

وَأَخَذُوا جَمِيعًا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ وَيَتَهَيَّئُونَ لِلْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. فَقَدْ كَانَتْ هَزِيمَتُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَشْنَعَ هَزِيمَةٍ وَأَذَلَّهَا، لَمْ تَعْرِفْ قُرَيْشٌ لَهَا سَابِقَةً فِي تَارِيخِهَا الْمَلِيءِ بِالْأَمْجَادِ، وَالْعَرَبُ جَمِيعًا تَهَابُهَا وَتَخْشَاهَا وَتَحْتَرِمُ

زَعَامَتَهَا وَتُقَدِّسُ مَكَانَتَهَا، وَمَا تَجَـــرَّأَتْ قَبِيلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مَهْمَا عَلَا شَأْنُهَا وَارْتَفَعَ مَقَامُهَا أَنْ تُنَافِسَهَا عَلَى السِّيَادَةِ.

وَهَا هُـــوَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ فِي قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ، وَعُدَّةٍ ضَعِيفَـــةٍ يَغْلِبُهُمْ، وَيَنْتَصِرُ عَلَيْهِمْ، وَيُمَرِّغُ كَرَامَتَهُمْ، وَيَسْفَعُ (يَسْحَبُ) جِبَاهَهُمْ وَهَامَاتِهِمْ عَلَى أَرْضِ بَدْرٍ، وَيَقُطُّ (يَقْطَعُ) رُءُوسَ الْكِبَارِ مِنْهُمْ.

فَأَيُّ حَيَاةٍ كَرِيمَةٍ يَحْيَوْنَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ؟

وَأَيُّ احْتِرَامٍ يَلْقَوْنَهُ عِنْدَ النَّاسِ؟

إِذَنْ لَا بُدَّ مِنَ الثَّأْرِ وَلَا بُدَّ مِنَ الِانْتِقَامِ.

عَلَى هَذَا النَّمَطِ، وَتَحْتَ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْبَوَاعِثِ وَالدَّوَافِعِ كَانَ اسْتِعْدَادُ قُرَيْشٍ لِيَوْمٍ تَرُدُّ فِيهِ مَا سُلِبَ مِنْهَا، وَتَثْأَرُ لِدِمَائِهَا وَسُؤْدَدِهَا.

لَمْ يَكْتَفِ زُعَمَاؤُهَا بِإِيقَادِ نَارِ الثَّأْرِ فِي نُفُوسِ الْمَكِّيِّينَ، بَلِ اسْـــتَنْفَرُوا حُلَفَاءَهُمْ مِنَ الْجِوَارِ وَغَيْرِهِ، وَشَحَذُوا أَسْـــلِحَتَهُمْ وَجَهَّزُوا جَيْشَهُمُ الَّذِي بَلَغَتْ تَكَالِيفُهُ الْمَادِّيَّةُ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَكَانَتْ «هِنْدُ بِنْـــتُ عُتْبَةَ» قَدْ فَقَدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى يَـــدِ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخَوَيْهَا، فَأَوْغَرَتْ صَدْرَ رَجُلٍ مِنَ الْأَحْبَاشِ اسْـــمُهُ «وَحْشِـــيٌّ» ـ يَقْذِفُ بِالْحَرْبَةِ فَلَا يُخْطِئُ ـ عَلَى «حَمْزَةَ» وَوَعَدَتْهُ بِالْعَطَاءِ السَّخِيِّ وَالْمَالِ الْكَثِيرِ وَالْحُرِّيَّةِ إِنْ هُوَ قَتَلَ «حَمْزَةَ» ثَأْرًا لِأَخَوَيْهَا، فَوَعَدَهَا «وَحْشِيٌّ» بِذَلِكَ.

وَأَتَى «أَبُو سُـــفْيَانَ» زَوْجُهَا إِلَى «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْـــدِ الْمُطَّلِبِ» عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَ الْجَيْشِ وَالْمُسَاهَمَةِ فِي نَفَقَاتِ الْحَمْلَةِ، فَأَبَى أَنْ يُشَارِكَ وَاعْتَذَرَ بِقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ؛ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِتَالِ.

وَوَجَدَ «الْعَبَّاسُ» الْفُرْصَةَ السَّـــانِحَةَ لِإِخْبَارِ ابْنِ أَخِيهِ بِالْأَمْرِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ سِرًّا يُخْبِرُهُ بِخُرُوجِ قُرَيْشٍ، وَمَا نَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الِانْتِقَامِ الشَّدِيدِ الْقَاسِي.

فَوَصَلَ الرَّسُولُ ـ رَسُولُ الْعَبَّاسِ ـ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُنْذِرُهُ وَيُحَذِّرُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحَرُّكِ قُرَيْشٍ مِنْ مَكَّةَ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

ثُمَّ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا، فِي عُدَّةٍ قَوِيَّةٍ وَعَدَدٍ كَبِيرٍ يَفُوقُ الثَّلَاثَةَ آلَافٍ، مَعَهُمْ حُلَفَاؤُهُمُ الْأَحَابِيشُ (نِسْـــبَةً إِلَى جَبَلِ حُبْيَشٍ فِي مَكَّةَ) وَهُمْ: «بَنُو الْمُصْطَلِقِ»، وَ«بَنُو الْهَوْلِ بْنِ خُزَيْمَةَ».

وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ نِسَـــاؤُهُمْ وَقِيَانُهُمْ (الْمُغَنِّيَاتُ) يُشَجِّعْنَهُمْ وَيُسَلِّينَهُمْ وَيُرَوِّحْنَ عَنْهُمْ.

وَلَبِثُوا فِي سَيْرِهِمُ الْحَثِيثِ حَتَّى بَلَغُوا طَرَفَ الْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا بِبَطْنِ الْوَادِي عِنْدَ جَبَلِ أُحُدٍ، وَكَانَ وُصُولُهُمْ فِي الثَّانِيَ عَشَـــرَ مِنْ شَـــهْرِ شَوَّالٍ فِي الْعَامِ الثَّالِثِ لِلْهِجْرَةِ.

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ عَمِّهِ «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، دَعَا أَصْحَابَهُ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْمَشُـــورَةِ، وَدَرَسَ الْأَمْرَ مَعَهُمْ وَقَلَّبَهُ عَلَى جَمِيعِ

وُجُوهِهِ، ثُمَّ اقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَخْرُجَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ لِمُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ، بَلْ يَتَحَصَّنُوا دَاخِلَهَا، فَإِنْ هَاجَمَهُمُ الْقُرَشِيُّونَ دَافَعُوا عَنْهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ عِنْدَئِذٍ فِي مَوْقِفٍ أَمْنَعَ وَأَقْوَى.

لَكِنَّ بَعْضَ الشُّبَّانِ وَالْفِتْيَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالَّذِينَ فَاتَهُمْ شَرَفُ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَدَحْرِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، رَأَوْا رَأْيًا آخَرَ، وَأَصَرُّوا عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمُنَازَلَةِ الْعَدُوِّ وَقِتَالِهِ؛ حَتَّى لَا يُظَنَّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ جَبُنُوا عَنْ مُوَاجَهَتِهِ وَخَافُوا لِقَاءَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ هَذَا الرَّأْيِ «حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَ«سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ» وَ«النُّعْمَانُ بْنُ مَالِكٍ» وَغَيْرُهُمْ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ «حَمْزَةُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، لَا أَطْعَمُ الْيَوْمَ طَعَامًا حَتَّى أُجَالِدَهُمْ بِسَيْفِي خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

وَقَالَ «النُّعْمَانُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ لَا تَحْرِمْنَا الْجَنَّةَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَدْخُلَنَّهَا.

حِينَئِذٍ لَمْ يَسَعِ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي التَّمَسُّكِ بِرَأْيِهِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ لِيَرْتَدِيَ لِبَاسَ الْحَرْبِ وَيَتَوَشَّحَ بِالسَّيْفِ، وَسِيمَاءُ الْغَضَبِ بَادِيَةٌ فِي مُحَيَّاهُ.

وَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ، أَخَذَ كِبَارُ الصَّحَابَةِ أَمْثَالُ «أَبِي بَكْرٍ» وَ«عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَلُومُونَ الشَّبَابَ عَلَى تَهَوُّرِهِمْ

وَتَسَرُّعِهِمْ وَإِحْرَاجِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

فَلَمَّا خَرَجَ، اعْتَذَرُوا لَـــهُ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُمْ، وَلَامُوا أَنْفُسَـــهُمْ عَلَى عِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِـــمْ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُمْ وَيَنْزِلُوا عِنْدَ رَأْيِهِ، وَيَمْكُثُوا كَمَا طَلَبَ إِلَيْهِمْ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ:

ـ مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ لَبِسَ لَأْمَتَـــهُ (دِرْعَهُ) لِلْحَرْبِ أَنْ يَضَعَهَا (يَنْزِعَهَا) حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ.

فَشَعَرُوا عِنْدَئِذٍ بِأَنَّهُمْ قَدْ تَسَرَّعُوا فِي أَمْرِهِمْ وَرَأْيِهِمْ، وَلَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ مِنْ مَجَالٍ لِلتَّرَاجُعِ وَالتَّلَاوُمِ.

وَانْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَرْحَلَةِ الْخُطَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَتَرْتِيبِ فِرَقِ الْمُقَاتِلِينَ، وَاخْتِيَارِ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ.

فَعَقَدَ لِوَاءً لِلْأَوْسِ جَعَلَهُ بِيَدِ «أُسَـــيْدِ بْنِ حُضَيْـــرٍ»، وَلِوَاءً آخَرَ لِلْخَزْرَجِ جَعَلَهُ بِيَدِ «الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ»، وَلِوَاءً ثَالِثًا لِلْمُهَاجِرِينَ جَعَلَهُ بِيَدِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ خَرَجَ بِجُنْدِهِ الَّذِينَ بَلَغَ عَدَدُهُمُ السَّبْعَمِئَةِ.

وَأَرَادَ بَعْضُ الْيَهُودِ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ لِلْقِتَالِ بِقِيَادَةِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ»، فَرَدَّهُمْ وَقَالَ لَهُمْ:

ـ لَنْ نَسْتَعِينَ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ.

وَمَضَى ﷺ حَتَّى نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ الشِّعْبَ (الْفَجْوَةَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ) مِنْ أُحُدٍ.

وَأَرْسَلَ عُيُونَهُ (جَوَاسِيسَهُ) يَسْتَطْلِعُونَ لَهُ أَخْبَارَ الْعَدُوِّ، فَعَرَفَ عَدَدَهُمْ، وَتَرْتِيبَاتِهِمْ وَقِيَادَاتِهِمْ، وَأَدْرَكَ خُطَّتَهُمُ الَّتِي سَيُقَاتِلُونَ عَلَيْهَا.

وَبِنَاءً عَلَى تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ رَسَـــمَ خُطَّتَهُ لِلْقِتَالِ، فَجَعَلَ عَلَى رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالْمَهَارَةِ بِرَمْيِ السِّهَامِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِـــمْ قَائِدًا «عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَنْضَحُوا (يَدْفَعُوا) عَنْهُمْ خَيْلَ الْمُشْـــرِكِينَ بِسِهَامِهِمْ؛ لِأَنَّ الْخَيْلَ تَجْفَلُ (تَنْفِرُ) مِنَ السِّهَامِ وَتَرْتَدُّ عَنْهَا، كَمَا أَمَرَهُمْ بِالثَّبَاتِ وَعَدَمِ مُغَادَرَةِ أَمَاكِنِهِمْ سَوَاءٌ كَانَ النَّصْرُ أَمْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ مَغَبَّةِ (نَتِيجَةِ) مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَرَّضُوا مُؤَخِّرَةَ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَطَرِ، فَتُطْبِقُ عَلَيْهِمْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ وَتُزَحْزِحُهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ.

وَأَعْلَنَ هَؤُلَاءِ الرُّمَاةُ رُضُوخَهُمْ لِلْأَمْرِ وَتَنْفِيذَهُمْ لَهُ.

وَكَانَتْ عَادَةُ الْحُرُوبِ أَنْ يَبْدَأَهَا الْفُرْسَانُ الشُّجْعَانُ، يَنْزِلُونَ إِلَى سَاحَاتِ الْوَغَى يَصُولُونَ عَلَى خَيْلِهِمْ، ثُمَّ يَتَحَدَّوْنَ الْفُرْسَانَ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَإِذَا مَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ طَلَبَ الْقَاتِلُ أَنْ يَبْرُزَ إِلَيْهِ مِنْ صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ آخَرُ.

وَتَمْضِي الْمَعَارِكُ الْفَرْدِيَّةُ بَيْنَ الطَّرَفَيْـــنِ فَتْرَةً حَتَّى يَدِبَّ الْحَمَاسُ فِي صُفُوفِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ، فَيَتَلَاقَوْنَ عِنْدَئِذٍ جَمَاعَاتٍ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَدَأَ الْقِتَالَ يَوْمَ «أُحُدٍ» «أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِـــقُ» الَّذِي خَرَجَ مِـــنْ صُفُوفِ قُرَيْشٍ يَدْعُو إِلَى الْمُبَارَزَةِ، فَتَلَقَّاهُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَارَةِ

يَضْرِبُونَهُ بِهَا اسْتِصْغَارًا لِشَأْنِهِ وَاحْتِقَارًا لِفُرُوسِيَّتِهِ، كَمَا أَخَذُوا يُعَيِّرُونَهُ بِمَوَاقِفِهِ السَّابِقَةِ، فَوَلَّى مُدْبِرًا هُوَ وَمَنْ خَرَجَ مَعَهُ لِحِمَايَتِهِ.

وَلَمَّا رَآهُ نِسْـــوَةُ قُرَيْشٍ قَدْ وَلَّى الْأَدْبَارَ، اسْـــتَاءُوا لِهَذِهِ الْبِدَايَةِ، فَأَخَذْنَ يَضْرِبْنَ بِالدُّفُوفِ وَيُحَمِّسْنَ الرِّجَالَ، وَيُغَنِّينَ:

وَيْهـــًا بَـنِي عَبْـدِ الـدَّارْ وَيْهـــًا حُـمَـاةَ الْأَدْبَـــارْ

ضَـــرْبـًا بِكُـــلِّ بَتَّـــارْ

وَيَقُلْنَ أَيْضًا:

نَحْـــنُ بَنَـــاتُ طَـــارِقْ نَمْشِي عَـــلَى النَّمَـارِقْ

مَشْـيَ الْقَطَـــا الْبَـوَارِقْ وَالْمِسْـــكَ فِي الْمَفَـارِقْ

وَالـــدُّرَّ فِي الْمَخَـــانِقْ

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَـــانِقْ وَنَفْـــرِشُ النَّمَـــارِقْ

أَوْ تُـدْبِرُوا نُفَـــارِقْ فِرَاقَ غَـــيْرِ وَامِقْ

فَلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ غِنَاءَهُنَّ وَحُدَاءَهُنَّ قَالَ:

«اللَّهُمَّ بِكَ أَجُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَفِيكَ أُقَاتِلُ، وَحَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وَكَأَنَّـــهُ ﷺ كَانَ يَرُدُّ بِهَذَا الْقَوْلِ الطَّاهِرِ الصَّافِي عَلَى عَنْجَهِيَّةِ الشِّـــرْكِ وَالْكُفَّارِ.

ثُمَّ خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يَدْعُو إِلَى الْبِرَازِ، فَأَحْجَمَ عَنْهُ النَّاسُ وَامْتَنَعُوا عَنْ لِقَائِهِ وَمُبَارَزَتِهِ، فَاسْـــتَأْذَنَ «الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ» رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَذِنَ لَهُ فَخَرَجَ لِقِتَالِ الرَّجُلِ، فَتَصَاوَلَا وَتَجَاوَلَا وَقْتًا طَوِيلًا، ثُمَّ تَمَاسَكَا فَوَقَعَا عَنْ رَكُوبَيْهِمَا وَتَدَحْرَجَا دَحْرَجَةً قَوِيَّةً، ثُمَّ وَقَعَ «الزُّبَيْرُ» عَلَى الرَّجُلِ فَقَتَلَهُ.

وَتَتَابَعَ خُرُوجُ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا تَتَابَعَ لِقَاءُ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ وَقِتَالُهُمْ وَالِانْتِصَارُ عَلَيْهِم.

ثُمَّ اشْتَبَكَ الْفَرِيقَانِ ،وَانْدَفَعَ فُرْسَانُ الْمُسْلِمِينَ حَسَبَ الْخُطَّةِ الْمَرْسُومَةِ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ، يَصُولُونَ وَيَجُولُونَ فِي كَتَائِبِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى زَعْزَعُوهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ وَأَعْمَلُوا السَّيْفَ فِي مُؤَخِّرَتِهِمْ.

وَكَانَ شِعَارُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ: أَمِتْ، أَمِتْ، يَتَعَارَفُونَ بِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ فِيمَا إِذَا اخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُمَيِّزُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.

وَلَمَّا حَمِيَ وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ مُنْهَزِمِينَ، وَقَدْ خَلَّفُوا وَرَاءَهُمُ الْغَنَائِمَ الْوَفِيرَةَ وَالْأَسْلَابَ الْكَثِيرَةَ.

وَلَمَحَ الرُّمَاةُ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَحْمُوا ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَثْبُتُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ لَا يُغَادِرُونَهَا، أَنَّ الْهَزِيمَةَ قَدْ أَحَاقَتْ بِالْمُشْرِكِينَ، فَتَحَرَّكَ فِي نُفُوسِهِمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَالطَّمَعُ بِالْغَنِيمَةِ، فَخَالَفَ أَكْثَرُهُمْ أَوَامِرَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمْرَ قَائِدِهِمْ «عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ» الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يُقْنِعَهُمْ بِالْبَقَاءِ وَالثَّبَاتِ، وَأَسْرَعُوا إِلَى الْغَنَائِمِ وَالسَّلْبِ.

وَرَأَى «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» ـ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى شِرْكِهِ يَوْمَئِذٍ ـ انْكِشَافَ ظَهْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَطْبَقَ بِالْكَتِيبَةِ الَّتِي كَانَ يَقُودُهَا عَلَى الْبَاقِينَ مِنَ الرُّمَاةِ وَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِيهِمْ حَتَّى أَبَادَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَخَذَ يَضْرِبُ فِي مُؤَخِّرَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي أَذْهَلَتْهُ الْمُفَاجَأَةُ.

وَتَبَدَّلَ الْمَوْقِفُ مِنْ ثَبَاتٍ إِلَى فِرَارٍ، وَمِنْ نَصْرٍ إِلَى هَزِيمَةٍ، وَوَقَعَتِ الْبَلْبَلَةُ فِي صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَادَ الْهَارِبُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَفَرَّ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمُونَهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ لَا يَتَعَدَّوْنَ الْعَشَرَةَ!

وَتَرَبَّصَ «وَحْشِيٌّ» الْحَبَشِيُّ بِـ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» حَتَّى رَآهُ، فَهَزَّ رُمْحَهُ ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَمَضَى يَصْفِرُ فِي الْهَوَاءِ حَتَّى أَصَابَ «حَمْزَةَ» فِي أَسْفَلِ بَطْنِهِ وَخَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَخَرَّ الْأَسَدُ الْهَصُورُ (الشُّجَاعُ) صَرِيعًا.

وَتَسَاقَطَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ صَرْعَى، وَحَاوَلَ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُؤْذُوهُ، فَكَانَ النَّفَرُ الَّذِينَ مِنْ حَوْلِهِ يُدَافِعُونَ عَنْهُ دِفَاعَ الِاسْتِمَاتَةِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النِّسْوَةِ الْمُؤْمِنَاتِ خُضْنَ مَعْرَكَةَ الدِّفَاعِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مُبَالِيَاتٍ بِالْمَوْتِ، هَمُّهُنَّ الْوَحِيدُ سَلَامَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَجَاتُهُ، وَلَا يُبَالِينَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يُصِيبُهُنَّ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ «نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ الْمَازِنِيَّةُ» «أُمُّ عُمَارَةَ» الَّتِي كَانَتْ تَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ ادْعُ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَكُونَ رُفَقَاءَكَ فِي الْجَنَّةِ.

فَيَدْعُو لَهَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَتَقُولُ:

ـ لَا أُبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَوْتِ أَوَقَعَ عَلَيَّ أَمْ وَقَعْتُ عَلَيْهِ.

وَأُصِيبَ ﷺ فِي وَجْهِهِ الشَّرِيفِ؛ فَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ (السِّنُّ الرَّابِعَةُ)، وَشُجَّ (جُرِحَ) وَجْهُهُ، وَظَلَّ ثَابِتًا فِي مَكَانِهِ يُشَجِّعُ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَشِدَّاءِ وَيُقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ.

وَأَرْجَفَ الْمُرْجِفُونَ (كَذَبُوا) بِمَقْتَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا زَادَ الْمَوْقِفَ سُوءًا، وَلَكِنْ لَمَّا عَلِمَ بَعْضُ الْفَارِّينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِكَذِبِ هَذِهِ الدِّعَايَةِ عَادُوا إِلَى مَوَاقِعِهِمْ وَدِفَاعِهِمْ وَقِتَالِهِمْ.

وَلَمَّا لَمْ يَجِدِ الْمُشْرِكُونَ سَبِيلًا إِلَى هَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ، أَوِ الْقَضَاءِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، رَغْمَ تَتَابُعِ هَجَمَاتِ فُرْسَانِهِمْ وَمَقْتَلِ هَؤُلَاءِ الْفُرْسَانِ، انْكَفَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَرَاجَعُوا وَقَدِ اكْتَفَوْا مِنْ يَوْمِهِمْ وَمَعْرَكَتِهِمْ بِمَا أَصَابُوهُ.

ثُمَّ ارْتَحَلُوا مُتَوَجِّهِينَ إِلَى مَكَّةَ.

وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَعْرِضُ شُهَدَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ (الشَّدِيدِ)، وَوَقَفَ عِنْدَ جَسَدِ عَمِّهِ «حَمْزَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَبَكَى بُكَاءً شَدِيدًا عَلَى أَسَدِ اللهِ الَّذِي قَضَى، كَمَا أَحْزَنَهُ مَصْرَعُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيرَةِ أَصْحَابِهِ وَأَحِبَّائِهِ الَّذِينَ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ للهِ، وَبَذَلُوا أَرْوَاحَهُمْ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ دِينِهِ.

ثُمَّ أَمَرَ بِدَفْنِهِمْ دُونَ أَنْ يُغَسَّلُوا أَوْ يُكَفَّنُوا.

وَحِينَ عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَدُوا مِنْ نِسَائِهِمْ لِقَاءً جَافًّا، وَتَعْيِيرًا بِالْخِذْلَانِ وَالْهَزِيمَةِ، وَتَفَرُّقِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ.

كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ (يَهُودَ الْمَدِينَةِ) لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَكْتُمُوا شَمَاتَتَهُمْ بِمَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارُوا يَتَنَاجَوْنَ بِذَلِكَ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ.

وَكَانَ ﷺ حَكِيمًا كُلَّ الْحِكْمَةِ حِينَ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقُومُوا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ مُتَعَقِّبِينَ لِجُمُوعِ قُرَيْشٍ إِرْهَابًا وَإِخَافَةً.

فَأَعَادَ بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْضَ الطُّمَأْنِينَةِ إِلَى نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَطَعَ أَلْسِنَةَ السُّوءِ عَنْهُمْ.

وَرَغْمَ جِرَاحِهِ ﷺ فَقَدْ خَرَجَ عَلَى رَأْسِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى بَلَغَ مَوْضِعًا يُسَمَّى (حَمْرَاءَ الْأَسَدِ)، فَلَمْ يَجِدْ لِقُرَيْشٍ أَثَرًا، فَعَادَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَاسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ أَنْ يُبْدِيَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَمَنَعَتِهِمْ.

وَهَكَذَا، أُسْدِلَ السِّتَارُ عَلَى فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ مَلْحَمَةِ الْجِهَادِ الَّذِي حَمَلَ لِوَاءَهُ سَيِّدُ الْمُجَاهِدِينَ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» ﷺ بَاذِلًا كُلَّ غَالٍ وَنَفِيسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ.

5

غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ

غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾.

«بَنُو النَّضِيرِ» قَبِيلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ «الْمَدِينَةَ» عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ عَاهَدَهُمْ فِي جُمْلَةِ مَنْ عَاهَدَ مِنَ الْيَهُودِ، وَوَقَّعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَثِيقَةَ عَدَمِ اعْتِدَاءٍ، كَمَا نَصَّتْ هَذِهِ الْوَثِيقَةُ أَيْضًا أَنْ لَا يَنْصُرُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا.

أَمَّا الضَّاحِيَةُ الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا فَتُسَمَّى «الْعَوَالِيَ»، عَلَى بُعْدِ مِيلَيْنِ مِنَ «الْمَدِينَةِ» تَمْتَازُ بِمَائِهَا الْعَذْبِ الْوَفِيرِ، وَنَخِيلِهَا الْكَثِيرِ الظَّلِيلِ، وَلَقَدْ وُصِفَ هَذَا النَّخِيلُ بِأَنَّهُ أَجْوَدُ نَخِيلٍ بِالْمَدِينَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

مَرَّتِ الْأَيَّامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ يَهُودِ «بَنِي النَّضِيرِ» طَيِّبَةً فِي ظَاهِرِهَا طَوَالَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، وَلَمَّا كَانَ رَبِيعُ الْعَامِ الرَّابِعِ مِنَ الْهِجْرَةِ حَدَثَ حَادِثٌ كَشَفَ نَوَايَا أُولَئِكَ الْغَدَّارِينَ، وَأَظْهَرَ حَقِيقَتَهُمُ الَّتِي كَانَتْ تُخْفِيهَا نُفُوسُهُمُ الْمَرِيضَةُ بِالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ.

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ حَـــدَثَ أَنْ قَتَلَ «عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلَيْنِ مِنْ «بَنِي عَامِرٍ» خَطَأً، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ جَاءَ إِلَى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ طَالِبًا مُسَاعَدَتَهُ، وَكَانَ «بَنُو عَامِرٍ» حُلَفَاءَ «بَنِي النَّضِيرِ»، فَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى دَفْعِ الدِّيَةِ لِذَوِي الْقَتِيلَيْنِ؛ يَدْفَعُ هُوَ جُزْءًا وَيَدْفَعُ «بَنُو النَّضِيرِ» الْجُزْءَ الْآخَرَ.

خَرَجَ ﷺ مَعَ عَشَـــرَةٍ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مِنْهُمْ: «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»، وَ«عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، وَ«عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»، وَ«عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، وَ«طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ»، وَ«عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ»، وَ«سَـــعْدُ بْنُ عُبَادَةَ»، حَتَّى أَتَوْا حَيَّ «بَنِي النَّضِيرِ» فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ زَعِيمَهُمْ «حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ» بِالْأَمْرِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ.

فَرَحَّبَ الْيَهُودُ بِمَجِيءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حَيِّهِمْ أَيَّمَا تَرْحِيبٍ، وَأَظْهَرُوا لَهُ كُلَّ الْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ، كَمَا أَبْدَوْا اسْتِعْدَادَهُمْ لِلْمُشَارَكَةِ فِي مَالِ الدِّيَةِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُدْفَعَ لِذَوِي الْقَتِيلَيْنِ مِنْ «بَنِي عَامِرٍ»، وَقَالَ زَعِيمُهُمْ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ»:

ـ نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ مِمَّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ، وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا وَأَنْ تَأْتِيَنَا، اجْلِسْ تَطْعَمْ وَتَرْجِعْ بِحَاجَتِكَ، وَنَقُومُ وَنَتَشَاوَرُ وَنُصْلِحُ أَمْرَنَا فِيمَا جِئْتَ بِهِ.

كَانَ هَذَا الْقَـــوْلُ تَرْحِيبًا مِنَ الْيَهُودِ بِمَقْدِمِ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ وَدَعْوَةً لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ بِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ زِيَادَةً فِي الْإِكْرَامِ.

لَقَدْ قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ وَأَظْهَرُوا هَذِهِ الْمَحَبَّةَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ دَخَلُوا لِيَتَشَاوَرُوا حَسَبَ زَعْمِهِمْ فِي مِقْدَارِ وَكَيْفِيَّةِ دَفْعِ مَالِ الدِّيَةِ.

فَلَمَّا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا:

ـ إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْحَالِ مُنْفَرِدًا لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَّا نَحْوُ الْعَشَرَةِ، فَلَوْ فَتَكْنَا بِهِ لَتَخَلَّصْنَا مِنْهُ إِلَى الْأَبَدِ، ثُمَّ نَأْخُذُ أَصْحَابَهُ هَؤُلَاءِ أَسْرَى فَنُسَلِّمُهُمْ إِلَى قُرَيْشٍ لِتَثْأَرَ مِنْهُمْ!

لَقَدْ وَجَدَ الْيَهُودُ فُرْصَتَهُمُ الذَّهَبِيَّةَ فَلَنْ يُضَيِّعُوهَا، وَاسْتَصْوَبَ أَكْثَرُ الْمُتَشَاوِرِينَ هَذَا الرَّأْيَ، وَفَرِحُوا أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُمْسِكُونَ بِزِمَامِ الْمَوْقِفِ، وَيَقْبِضُونَ عَلَى مَقَالِيدِهِ.

فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ كَيْفِيَّةَ الْقَضَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنْ يَحْمِلَ حَجَرًا ثَقِيلًا وَيَعْلُو سَطْحَ الْبَيْتِ الَّذِي يَجْلِسُ عِنْدَ حَائِطِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَصَحْبُهُ، ثُمَّ يُلْقِي بِالْحَجَرِ مِنْ أَعْلَى فَوْقَ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَقْضِي عَلَيْهِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ رَيْثَمَا يَعُودُ الْمُتَشَاوِرُونَ مِنْ «بَنِي النَّضِيرِ»، أَوْحَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ بِمَا يُبَيِّتُهُ الْيَهُودُ مِنَ الْغَدْرِ وَالْخَدِيعَةِ، فَقَامَ فَجْأَةً مِنْ مَكَانِهِ مُسْتَأْذِنًا أَصْحَابَهُ فِي قَضَاءِ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، ثُمَّ طَالَتْ غَيْبَتُهُ ﷺ ، فَقَامَ أَصْحَابُهُ يَبْحَثُونَ عَنْهُ، فَلَقِيَهُمْ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» لَدَى خُرُوجِهِ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ مَعَ بَقِيَّةِ الْيَهُودِ لِلتَّشَاوُرِ وَالتَّآمُرِ، فَقَالَ:

ـ لَقَدْ عَجِلَ أَبُو الْقَاسِمِ، كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَنَقْرِيَهُ (نُضَيِّفَهُ).

وَلَقَدْ أَدْرَكَ الْيَهُودُ أَنَّ مُؤَامَرَتَهُمْ قَدِ افْتَضَحَتْ، وَأَنَّ نَوَايَاهُمُ الْخَبِيثَةَ قَدْ ظَهَرَتْ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ فَغَادَرَ مَكَانَهُ، وَلَقَدْ حَذَّرَهُمْ أَحَدُ عُقَلَائِهِمْ وَيُدْعَى «سَلَّامَ بْنَ مِشْكَمٍ» فِكْرَةَ الْغَدْرِ وَالِاغْتِيَالِ قَائِلًا لَهُمْ:

- إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَعْلَمُ بِمَا تَأْتَمِرُونَ بِهِ، فَخَيْرٌ لَكُمْ أَنْ لَا تَرْكَنُوا إِلَى مَا أَنْتُمْ مُزْمِعُونَ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا يَئِسَ الصَّحَابَةُ مِنْ عَوْدَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، قَدِمُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بِقُلُوبٍ وَاجِفَةٍ مُضْطَرِبَةٍ جَزَعًا عَلَى نَبِيِّهِمْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ، فَلَمَّا بَلَغُوا بَيْتَهُ سَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ مُغَادَرَتِهِ حَيَّ «بَنِي النَّضِيرِ» عَلَى عَجَلٍ وَدُونَ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِشَيْءٍ.

فَشَرَحَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَ جَالِسًا مَعَهُمْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِأَنَّ الْقَوْمَ يُرِيدُونَ الْفَتْكَ بِهِ وَالْغَدْرَ بِأَصْحَابِهِ، فَلَوْ أَخْبَرَهُمْ آنَذَاكَ بِالْأَمْرِ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمَنَ ثَوْرَةَ أَصْحَابِهِ عَلَى الْيَهُودِ، وَهُمْ قِلَّةٌ لَا يُمْكِنُهُمْ قِتَالُ الْيَهُودِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ مُحْتَجًّا بِقَضَاءِ حَاجَةٍ.

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَكِيمًا إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الْحِكْمَةِ حِينَمَا تَصَرَّفَ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، حَرِيصًا عَلَى أَصْحَابِهِ قَبْلَ حِرْصِهِ عَلَى نَفْسِهِ.

وَهَكَذَا فَقَدْ بَدَأَ الْيَهُودُ نَقْضَ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ذِمَّةٌ.

وَلَا بُدَّ مِنْ تَأْدِيبِهِمْ عَلَى مَا بَدَرَ مِنْهُمْ، وَظَهَرَ مِنْ غَدْرِهِمْ، فَأَرْسَـــلَ إِلَيْهِمْ يُنْذِرُهُمْ أَنْ يُغَادِرُوا الْمَدِينَةَ خِلَالَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ وَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِيهَا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وَلَمَّا بَلَغَهُمْ إِنْـــذَارُهُ ﷺ اجْتَمَعُوا لِلتَّدَاوُلِ وَالْبَحْثِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارِ، وَلَقَدْ لَامَهُمْ «سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ» لَوْمًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا لِرَأْيِهِ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنَصِيحَتِهِ، وَأَنْذَرَهُمْ بِسُوءِ الْعَاقِبَةِ إِنْ هُمْ أَصَرُّوا عَلَى رَفْضِ الْإِنْذَارِ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي جَدَلِهِمْ جَاءَهُمْ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» الْيَهُودِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ نِفَاقًا وَخِدَاعًا، فَقَالَ لِزَعِيمِهِمْ «حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ»:

ـ لَا تَعْبَأُوا بِإِنْذَارِ مُحَمَّدٍ، وَلَا تَهْتَمُّوا لَهُ وَلَا تُنَفِّذُوهُ، اثْبُتُوا وَتَمَنَّعُوا، فَإِنَّا لَا نُسْلِمُكُمْ، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ «سَلَّامُ بْنُ مِشْـــكَمٍ» الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ حَاضِرًا مَجْلِسَهُمْ بِأَنَّ كَلَامَهُ هَذَا نِفَاقٌ وَكَذِبٌ، ثُمَّ وَجَّهَ كَلَامَهُ إِلَى قَوْمِهِ وَقَالَ:

ـ إِنَّهُ ـ أَيِ ابْنَ سَلُولٍ ـ لَنْ يُنَفِّذَ شَـــيْئًا مِمَّا يَعِدُكُمْ بِهِ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَنْزِلُوا عِنْدَ إِنْذَارِ مُحَمَّدٍ. أَلَسْتُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ وَنَكَثْتُمْ بِالْوَعْدِ؟! فَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا أَنْ تَتَحَمَّلُوا وِزْرَ مَا فَعَلْتُمْ.

وَلِأَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَسَـــمَ خُطُوطَ حَاضِرِهِ وَمُسْتَقْبَلِهِ لَمْ يَسْتَجِبْ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» لِقَوْلِ «سَلَّامِ بْنِ مِشْـــكَمٍ» أَوْ نَصِيحَتِهِ، بَلْ وَقَعَ تَحْتَ تَأْثِيرِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ»، فَأَرْسَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ رَدَّ الْيَهُودِ:

ـ إِنَّا لَا نَخْرُجُ...

وَلَمَّا بَلَغَهُ ﷺ رَدُّ الْيَهُودِ، كَبَّرَ وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ:

ـ لَقَدْ حَارَبَتْ يَهُودُ.

وَكَأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ هَذَا الرَّدَّ.

ثُمَّ جَهَّزَ إِخْوَانَهُ مِمَّنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مَعَهُ لِقِتَالِهِمْ، وَانْطَلَقُوا مُشَاةً إِلَى حَيِّ «بَنِي النَّضِيرِ» لِقُرْبِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَبَلَغُوهُ عَصْرًا.

فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، وَلَمَّا رَآهُ الْيَهُودُ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَوْقِفَ الدِّفَاعِ وَتَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَهَا، وَامْتَنَعُوا دَاخِلَهَا.

ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَى الْمُنَافِقِ «ابْنِ أُبَيٍّ» يَسْتَنْصِرُونَهُ وَيَسْتَنْجِزُونَهُ وَعْدَهُ الَّذِي وَعَدَهُمْ إِيَّاهُ، فَلَمْ يُعِنْهُمْ، وَلَمْ يُلَبِّ طَلَبَهُمْ.

فَأَسِفُوا لِذَلِكَ، وَنَدِمُوا عَلَى قَبُولِهِمْ رَأْيَهُ، عِنْدَئِذٍ حَاوَلُوا الْكَرَّةَ لَعَلَّهُ يَقْتَنِعُ بِخُطُورَةِ الْمَوْقِفِ وَوُجُوبِ الْمُسَاعَدَةِ، فَأَجَابَهُمْ:

ـ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ مُحَمَّدٍ.

فَقَالَ «سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ» لِـ «حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ» مُعَاتِبًا:

ـ أَيْنَ الَّذِي زَعَمْتَ؟

فَقَالَ:

ـ إِنَّهَا مَلْحَمَةٌ (مَعْرَكَةٌ) كُتِبَتْ عَلَيْنَا.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قُبَّةً (خَيْمَةً) تَكُونُ مَرْكَزَ الْقِيَادَةِ،

وَأَحَاطُوا بِحُصُونِ «بَنِي النَّضِيرِ» مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَمْ يَتْرُكُوا جِهَةً أَوْ ثُغْرَةً إِلَّا تَمَرْكَزُوا عِنْدَهَـــا، لِيَمْنَعُوا عَنْهُمْ كُلَّ مَدَدٍ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ، وَكُلَّ اتِّصَالٍ خَارِجِيٍّ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُفَكِّرُوا بِهِ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمُ الْخِنَاقَ.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِفُ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ أَسَـــالِيبَ الْيَهُودِ وَوَسَائِلَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ غَدْرٍ وَمُبَاغَتَةٍ، فَأَوْكَلَ إِلَى «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُهِمَّةً مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ وَأَرْخَى سُـــدُولَهُ (أَظْلَمَ) وَاشْتَدَّ سَـــوَادُهُ، افْتَقَدَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ «عَلِيًّا» فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي مُعَسْكَرِهِمْ، فَجَاءُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْهُ، فَقَالَ:

ـ سَوْفَ يَأْتِيكُمْ بِخَيْرٍ.

وَسَـــكَتَ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُفْصِحْ عَنْ نَوْعِيَّةِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي غَيَّبَتْ «عَلِيًّا» عَنِ الْمُعَسْكَرِ.

وَحَدَثَ أَنْ خَرَجَ أَحَدُ فُرْسَانِ «بَنِي النَّضِيرِ» الْمَشْهُورِينَ وَاسْمُهُ «عَزُّوكُ» مَعَ عَدَدٍ مِنَ الْجُنُودِ يُرِيدُ أَنْ يُفَاجِئَ مُعَسْـــكَرَ الْمُسْـــلِمِينَ، وَيُغِيرَ عَلَيْهِمْ مُسْتَتِرًا بِسَوَادِ اللَّيْلِ وَظُلْمَتِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ وَقَعَ فِي كَمِينٍ نَصَبَهُ لَهُ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَفَرَّ أَصْحَابُ «عَزُّوكَ» خَوْفًا وَهَلَعًا، وَاصْطَدَمَ «عَزُّوكُ» بِـ «عَلِيٍّ» فَتَصَاوَلَا فَتْرَةً، ثُمَّ مَا لَبِـــثَ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى قَضَى عَلَيْهِ، وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ (قَطَعَهَا) وَعَادَ بِهَا إِلَى مُعَسْـــكَرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَلَّلُوا وَكَبَّرُوا، ثُمَّ

أَتْبَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ «الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَصْحَابَ «عَزُّوكَ» الْفَارِّينَ.

وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ أَصْحَابُ «عَـــزُّوكَ» حُصُونَهُمْ، انْطَلَقُوا خَارِجَهَا لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ، فَأَدْرَكَهُمْ فُرْسَانُ الْمُسْـــلِمِينَ وَقَضَوْا عَلَيْهِمْ، وَطَرَحُوا رُءُوسَهُمْ فِي بَعْضِ الْآبَارِ.

تَرَكَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ أَسْوَأَ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِ «بَنِي النَّضِيرِ»؛ إِذْ كَانَتْ تَجْرِبَةً فَاشِلَةً، وَكَانَتْ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ مُقَاوَمَتِهِمْ.

لَكِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَى الِاسْـــتِمْرَارِ فِي الْحِصَارِ، وَجَعَلُـــوا يَصْطَنِعُونَ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً وَعِنَادًا وَكِبْرِيَاءً.

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ وَالْمَوْقِفُ لَا يَزَالُ عَلَى حَالِهِ؛ الْيَهُودُ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ وَلَا يُجَابِهُونَ، وَالْمُسْلِمُونَ يُحِيطُونَ بِهِمْ، وَيَتَحَيَّنُونَ فُرْصَةً لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ خَطَرَتْ فِي ذِهْنِ النَّبِيِّ ﷺ خَاطِرَةٌ...

إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ مَادِّيُّونَ، يَحْرِصُونَ عَلَى كُلِّ دِرْهَمٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَلِمَاذَا لَا يُغِيظُهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ عَنْ طَوْرِهِمْ بِافْتِعَالِ خَسَارَةٍ مَادِّيَّةٍ تَلْحَقُ بِهِمْ؟

ثُمَّ أَصْدَرَ أَوَامِرَهُ لِأَصْحَابِهِ أَنْ يَقْطَعُوا نَخِيلَ الْيَهُودِ وَيُحْرِقُوهُ، وَلَقَدْ كَانَ نَخِيلُهُمْ أَجْوَدَ مَا فِي الْمَدِينَةِ، فَأَخَذَتِ الْأَيْدِي تَعْمَلُ بِغَيْرِ كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ.

وَمَا إِنْ لَمَحَ الْيَهُودُ أَشْـــجَارَهُمْ تَتَهَاوَى الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الْأُخْرَى، وَالنِّيرَانُ تَشُبُّ فِيهَا ثُمَّ تَقْضِي عَلَيْهَا، حَتَّى أَخَذَ نِسْوَتُهُمْ بِالصِّيَاحِ وَالْوَلْوَلَةِ وَالنَّدْبِ.

ثُمَّ عَلَا بُكَاؤُهُمْ وَعَوِيلُهُمْ.

وَأَفْلَحَتْ خُطَّةُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَأَرْسَلَ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» إِلَيْهِ مُعْلِنًا اسْتِسْلَامَهُ وَقَوْمَهُ عَلَى أَنْ تُحْفَظَ عَلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ؛ فَأَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَلِكَ، فَخَرَجُوا مِنْ حُصُونِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ لَا يَحْمِلُونَ إِلَّا مَؤُونَتَهُمْ وَأَمْتِعَتَهُمْ.

وَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ لَكُمْ دِمَاؤُكُمْ وَمَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ.

لَكِنَّ الْيَهُودَ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرُوا بُيُوتَهُمْ أَخَذُوا يُخَرِّبُونَهَا، حَتَّى لَا يَنْتَفِعَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَعْدُ.

وَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِمْ جَزَاءَ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ.

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثُمَّ قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْوَالَهُمْ فِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ فَقَدُوا الْأَمْوَالَ وَالْمَتَاعَ وَالدُّورَ حِينَمَا أَخْرَجَتْهُمْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ قَسْرًا؛ وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى رَغْبَةِ الْأَنْصَارِ وَبِرِضًا مِنْهُمْ.

(وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

6

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

قَالَ «عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«لَوْلَا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا (مَرْكَزَ الْحِرَاسَةِ) أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا انْصَرَفْتُ وَلَوْ آتِي عَلَى نَفْسِي (أَمُوتُ)».

سَمِعَ أَبُو بَرَاءٍ «عَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ» بِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَبِنُبُوَّةِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ ، فَأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَيْئًا مِنْهَا لَعَلَّهَا تَجِدُ قَبُولًا عِنْدَهُ، فَقَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ زَائِرًا مُسْتَطْلِعًا.

وَكَانَ أَبُو بَرَاءٍ يُلَقَّبُ بِـ «مُلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ»؛ لِمَا اشْتُهِرَ عَنْهُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ فُرُوسِيَّةٍ وَشَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ، كَمَا كَانَ يُتْقِنُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمُبَارَزَاتِ بِالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ وَالْقَوْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُوَضِّحَ لَهُ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، أَوْ يَذْكُرَ لَهُ أُصُولَهُ وَمَبَادِئَهُ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ، لَكِنَّ «مُلَاعِبَ الْأَسِنَّةِ» لَمْ يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ، ثُمَّ قَالَ:

- يَا «مُحَمَّدُ» لَوْ بَعَثْتَ رِجَالًا مِـــنْ أَصْحَابِكَ إِلَى أَهْلِ «نَجْدٍ» فَدَعَوْهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، رَجَوْتُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ.

فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

- إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ.

لِمَا كَانَ يَعْرِفُهُ ﷺ عَنْهُمْ مِنْ جَفْوَةٍ وَغِلْظَةٍ وَغَدْرٍ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَرَاءٍ «مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ»:

- أَنَا لَهُمْ جَارٌ (أَيْ: حَامٍ) فَابْعَثْهُمْ فَلْيَدْعُوا النَّاسُ إِلَى أَمْرِكَ.

ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ.

فَكَّرَ النَّبِـــيّ ﷺ فِي الْأَمْرِ كَثِيرًا، وَكَانَ مُتَرَدِّدًا بَيْـــنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ، يَتَنَازَعُهُ عَامِلَانِ: مَخَافَتُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَحِرْصُهُ عَلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِتَبْلِيغِهَا إِلَى النَّاسِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ.

إِنَّ الْقَـــوْمَ الَّذِينَ طَلَبَ إِلَيْهِ «مُلَاعِبُ الْأَسِـــنَّةِ» أَنْ يَبْعَثَ أَصْحَابَهُ إِلَيْهِمْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ هُمْ «بَنُو ثَعْلَبَةَ» وَ«بَنُو مُحَارِبٍ» الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ غَزَاهُمْ يَوْمَ غَطَفَانَ، فَأَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، فَهُمْ مُتَقَلِّبُونَ، يَغْدِرُونَ حِينَ تَسْنَحُ لَهُمُ الْفُرْصَةُ.

لَكِنَّ وَاجِبَ الدَّعْوَةِ يُحَتِّمُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَوَقَّفَ أَمَامَ أَمْرٍ كَهَذَا.

ثُمَّ عَزَمَ أَمْرَهُ ﷺ وَأَرْسَـــلَ «الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو» أَحَدَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مَعَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ يَحْمِلُونَ رِسَالَةً مِنْهُ ﷺ إِلَى «عَامِرِ

ابْنِ الطُّفَيْلِ» زَعِيمِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَسَيِّدِهِمْ، يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، هُوَ وَقَوْمِهِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمَدِينَةِ زَوَّدَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَصَائِحِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ، وَتَمَنَّى لَهُمُ التَّوْفِيقَ فِي مُهِمَّتِهِمْ.

وَتَوَجَّهَ الرَّكْبُ الْمَيْمُونُ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَكَانٍ يُسَمَّى «بِئْرَ مَعُونَةَ»، وَهُنَاكَ تَوَقَّفُوا عَنِ الْمَسِيرِ وَأَقَامُوا لِلرَّاحَةِ، ثُمَّ أَرْسَلُوا الْكِتَابَ (الرِّسَالَةَ) مَعَ أَحَدِهِمْ إِلَى «عَامِرٍ».

وَكَانَ «عَامِرٌ» هَذَا فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ، مَغْرُورًا إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الْغُرُورِ، وَمُتَكَبِّرًا، فَلَمْ يَنْظُرْ فِي الْكِتَابِ، بَلْ أَسْرَعَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُهُ! ثُمَّ اسْتَصْرَخَ بَعْضَ قَبَائِلِ «بَنِي سُلَيْمٍ» مَعَ قَوْمِهِ لِيُعِينُوهُ عَلَى الْفَتْكِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَأَجَابُوهُ.

وَبَيْنَمَا الْقِلَّةُ الْمُؤْمِنَةُ مَشْغُولَةٌ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، يَنْتَظِرُونَ عَوْدَةَ صَاحِبِهِمُ الَّذِي كَلَّفُوهُ نَقْلَ الرِّسَالَةِ إِلَى «عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ»، فُوجِئُوا بِالْأَعْرَابِ يُحِيطُونَ بِهِمْ، وَيَقْضُونَ عَلَيْهِمْ، غَدْرًا وَغِيلَةً.

وَلَمْ يَنْجُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ظَنَّهُ الْفُجَّارُ قَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ لِكَثْرَةِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْجِرَاحِ، وَلِغَزَارَةِ مَا سَالَ مِنْهُ مِنَ الدِّمَاءِ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، بَلِ انْتَظَرَ فَتْرَةً حَتَّى غَادَرَ الْمُغِيرُونَ الْمَكَانَ، فَاحْتَمَلَ جِرَاحَهُ وَآلَامَهُ وَمَضَى نَحْوَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ بَلَغَهَا بِشِقِّ النَّفْسِ، مَنْهُوكَ الْقُوَى، مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنَ التَّعَبِ.

كَانَ هَذَا الصَّحَابِيُّ الْمُؤْمِنُ «كَعْبَ بْنَ زَيْدٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلَمَّا سَـــمِعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ «كَعْبٍ» تَفَاصِيلَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ النَّكْرَاءِ، بَعْدَ أَنِ اسْتَرَدَّ «كَعْبٌ» قُوَاهُ وَوَعْيَهُ، بَلَغَ الْحُزْنُ أَقْصَاهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَأْدِيبِ الَّذِينَ غَدَرُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَفَتَكُوا بِهِمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا عِنْدَ «بِئْرِ مَعُونَةَ». فَاسْـــتَنْفَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ جَهَّزَ أَرْبَعَمِئَةٍ مِنْهُمْ وَخَرَجَ بِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي أَوَاخِرِ رَبِيعٍ الثَّانِي مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ مُتَّجِهًا إِلَى «نَجْدٍ».

وَظَلُّوا فِي سَـــيْرِهِمْ يَصِلُونَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ حَتَّى بَلَغُوا مَوْضِعًا فِيهِ شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ كَانَ يُقَدِّسُهَا الْأَعْرَابُ وَيُعَظِّمُونَهَا يُقَالُ لَهَا: «ذَاتُ الرِّقَاعِ»، فَأَقَامُوا هُنَالِكَ لِلرَّاحَةِ؛ لِذَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الغَزْوَةُ بِـ «ذَاتِ الرِّقَاعِ».

وَيُقَالُ أَيْضًا بِأَنَّ أَقْدَامَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَفِيَتْ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ لِكَثْرَةِ الْمَشْيِ وَمُوَاصَلَةِ السَّيْرِ، مِمَّا اضْطَرَّهُمْ أَنْ يَلُفُّوا أَقْدَامَهُمْ بِالرِّقَاعِ، فَسُمِّيَتِ الغَزْوَةُ بِـ «ذَاتِ الرِّقَاعِ».

وَسَـــوَاءٌ كَانَ هَذَا الرَّأْيُ أَوْ ذَاكَ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ وَجَدُوا نَصَبًا وَمَشَقَّةً كَبِيرَةً فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ، وَتَعِبُوا تَعَبًا شَدِيدًا.

وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَسْـــكَرَهُ وَضَرَبَ خِيَامَهُ، أَرْسَلَ جَمَاعَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُخْتَلِفِ الْجِهَاتِ، لِلتَّعَرُّفِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَلِيَعْرِفُوا مَكَانَ تَجَمُّعِهِ،

وَعَدَدَ جُنُودِهِ، وَمَدَى اسْـــتِعْدَادِهِ، فَجَاسُوا فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَأَوْغَلُوا (ابْتَعَدُوا كَثِيرًا)، ثُمَّ عَادُوا وَقَدْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ لِيُخْبِرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ مَا وَجَدُوا شَيْئًا.

لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ الْمُسْـــلِمِينَ أَنْ يَبِيتُوا لَيْلَتَهُمْ وَهُمْ عَلَى حَذَرٍ، وَانْتَدَبَ جَمَاعَةً مِنْ أَشِدَّاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَبْطَالِهِمْ لِيَقُومُوا بِالْحِرَاسَةِ.

وَمَا إِنْ بَزَغَ الْفَجْرُ بِنُورِهِ الْفِضِّيِّ حَتَّى كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْـــلَامِيُّ يُعَاوِدُ الْمَسِيرَ حَتَّى دَنَا مِنْ مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «نَخْلٌ» مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ، حَيْثُ وَجَدُوا نِسَـــاءَ «بَنِي مُحَارِبٍ» وَ«بَنِي ثَعْلَبَةَ»، وَلَمْ يَجِدُوا لِلرِّجَالِ أَثَرًا، فَأَسَرُوهُنَّ، وَحِينَ وَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي أَعْمَالِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ تَفَرَّقُوا فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ وَالْهِضَابِ خَشْيَةً وَخَوْفًا.

وَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ مُعَسْكَرَهُمْ هُنَاكَ، وَلَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِدُّ مَعَ أَصْحَابِهِ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ، أَمَّا الْأَعْدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَنْصِرُوا كُلَّ حُلَفَائِهِمْ، فَأَطْلَقُوا النَّفِيرَ فِي الْقَبَائِلِ الَّتِي رَاحَتْ تَتَجَمَّعُ أَعْدَادًا وَفِيرَةً.

ثُمَّ كَرُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمُ اللُّيُوثُ الْكَوَاسِرُ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤَيَّدِينَ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَمْ يَرْهَبُوهُمْ وَلَمْ يَخَافُوهُمْ، وَظَلُّوا فِي أَمَاكِنِهِمْ، وَصَدُّوا هُجُومَ الْعَدُوِّ بِالنِّبَالِ وَالسِّهَامِ، وَمَرَّ النَّهَارُ دُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْ بَعْضِهِمْ.

وَعِنْدَمَـــا حَلَّ الْغُرُوبُ وَحَجَزَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ اللَّيْلُ، اخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدَ الشِّعَابِ الْوَعْرَةِ مَأْوًى لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ، يَحْتَمُونَ بِمَنَاعَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ ذَاتَ رِيحٍ شَدِيدَةٍ، وَبَرْدٍ قَارِسٍ.

وَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُمْ:

ـ مَنْ يَكْلَؤُنَا اللَّيْلَةَ؟ (يَعْنِي: يَحْرُسُنَا).

فَقَامَ «عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ» وَ«عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ،وَقَالَا:

ـ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ.

ثُمَّ أَخَذَا مَكَانَيْهِمَا عَلَى فَمِ الشِّعْبِ (مَدْخَلِهِ)، كَمَا تَقَاسَمَا فَتْرَتَيِ الْحِرَاسَةِ، إِذْ قَالَ «عَبَّادٌ» لِـ «عَمَّارٍ»:

ـ أَنَا أَحْرُسُ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَأَنْتَ تَحْرُسُ آخِرَهُ.

وَاسْتَمَرَّ «عَبَّادٌ» فِي مَكَانِهِ لَا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ وَلَا يَغْفُلُ أَبَدًا، بَيْنَمَا اتَّكَأَ «عَمَّارٌ» عَلَى صَخْرَةٍ لِيَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ مُطْمَئِنًّا إِلَى قُدْرَةِ رَفِيقِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْمُهِمَّةِ دُونَهُ.

وَمَرَّ قِسْمٌ مِنَ اللَّيْلِ.

ثُمَّ حَدَثَ حَادِثٌ لَهُ مَغْزَاهُ وَلَهُ دِلَالَتُهُ الْعَمِيقَةُ عَلَى الْوَفَاءِ الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الْمُسْلِمُ؛ إِذْ كَانَ زَوْجُ إِحْدَى النِّسَاءِ اللَّوَاتِي أَسَرَهُنَّ الْمُسْلِمُونَ غَائِبًا فِي أَمْرٍ عَنْ قَوْمِهِ، وَحِينَ عَادَ وَعَلِمَ بِمَا جَرَى لِأَهْلِهِ، ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ وَالْتَهَبَتْ حَمِيَّتُهُ، وَأَقْسَمَ لَيَقْتُلَنَّ «مُحَمَّدًا».

ثُمَّ تَسَلَّلَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، وَتَجَلْبَبَ بِاللَّيْلِ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَتَوَشَّحَ بِقَوْسِهِ وَسَيْفِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَهَلٍ حَتَّى أَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْ مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الشِّعْبِ.

ثُمَّ تَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ وَمَشَى عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، وَهُوَ يُحَاذِرُ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَتَضِيعَ الْفُرْصَةُ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «عَبَّادِ بْنِ بِشْـــرٍ» سِوَى أَذْرُعٍ قَلِيلَةٍ، وَكَانَ «عَبَّادٌ» يُصَـــلِّي وَهُوَ فِي قُعُودِهِ الْأَخِيرِ، فَخُيِّلَ لِلرَّجُلِ أَنَّ «عَبَّادًا» هُوَ رَايَةُ الْمُسْـــلِمِينَ، فَأَوْتَرَ سَـــهْمَهُ (وَضَعَهُ فِي وَتَرِ الْقَوْسِ) ثُمَّ أَطْلَقَهُ، فَمَضَى يَصْفِرُ فِي الْهَوَاءِ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي جِسْمِ «عَبَّادٍ»، فَلَمْ يَصْرُخْ وَلَمْ تَصْدُرْ عَنْهُ كَلِمَةُ أَلَمٍ، بَلْ نَزَعَ السَّهْمَ بِهُدُوءٍ مُتَحَمِّلًا كُلَّ الْوَجَعِ فِي سَبِيلِ إِتْمَامِ عِبَادَتِهِ، وَلِكَيْ لَا يَلْفِتَ نَظَرَ الرَّجُلِ إِلَى الْحَقِيقَةِ.

وَلِكَيْ يَسْـــتَوْثِقَ الرَّجُلُ مِنْ أَنَّ هَذَا الْجِسْمَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ إِنْسَانًا حَارِسًا، أَطْلَقَ سَهْمًا ثَانِيًا وَثَالِثًا...

وَلَمَّا غَلَبَ الدَّمُ «عَبَّادًا» أَيْقَظَ «عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ» رَفِيقَهُ، لِيَتَوَلَّى الْحِرَاسَةَ مَكَانَهُ، فَلَمَّا رَآهُ «عَمَّارٌ» عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَالَ لَهُ هَمْسًا:

ـ لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ سَامَحَكَ اللهُ.

فَقَالَ «عَبَّادٌ»:

ـ كُنْتُ فِي صَلَاتِي، وَلَمْ أُرِدْ أَنْ أَقْطَعَهَا، وَلَوْلَا أَنِّي خَشِـــيتُ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا انْصَرَفْتُ، وَلَوْ آتِي عَلَى نَفْسِي.

يَا لَرَوْعَةِ الْوَفَاءِ، وَيَا لَجَمَالِ الْأَمَانَةِ، وَيَا لَعِظَمِ التَّضْحِيَةِ.

لَكَ اللهُ يَا عَبَّادُ، لَكَ اللهُ أَيُّهَا الصَّحَابِـــيُّ الْكَرِيمُ الَّذِي آثَرَ الْمَوْتَ عَلَى أَنْ يُضَيِّعَ أَمَانَةً أَوْكَلَهَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَحِينَ رَأَى الرَّجُلُ الْمُغِيرُ عَلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ تَحَرُّكَ «عَمَّارٍ» وَ«عَبَّادٍ»، أَدْرَكَ أَنْ لَا فَائِدَةَ تُرْجَى مِنْ غَزْوِ الْمُعَسْكَرِ، فَعَادَ أَدْرَاجَهُ.

وَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي، عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِمُغَامَرَةِ اللَّيْلَةِ، فَأَمَرَ بِإِسْعَافِ «عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ»، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَادَ الْفَرِيقَانِ إِلَى الْمُنَاجَزَةِ وَالْقِتَالِ سَحَابَةَ النَّهَارِ حَتَّى وَهَنَتْ قُوَّةُ الْأَعْدَاءِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا.

وَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَوَجَدُوا أَنَّ الِاسْتِسْلَامَ قَدَرٌ مَحْتُومٌ حِرْصًا عَلَى النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَنْ يُفَاوِضُهُ، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ مُقَابِلَ الْعَفْوِ، فَرَضُوا بِذَلِكَ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ.

وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ طَالَتْ مُدَّةُ غَيْبَتِهِ عَنْهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، لَكِنَّهُ أَفَادَ مِنْ هَذِهِ الغَزْوَةِ قُوَّةً وَهَيْبَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ تَعُدْ قَبَائِلُ نَجْدٍ تَتَحَرَّكُ لِقِتَالِهِ بِالْعُنْفِ وَالْكَثْرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِهِمَا مِنْ قَبْلُ.

رَحِمَ اللهُ شُهَدَاءَ «بِئْرِ مَعُونَةَ»، وَرَضِيَ عَنْ «عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ» كِفَاءَ مَا بَذَلَ مِنْ دِمَاءٍ وَفِدَاءٍ.

7

غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ

غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ

قَالَتْ «جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ:
«رَأَيْتُ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ بِثَلَاثِ لَيَالٍ كَأَنَّ الْقَمَرَ يَسِيرُ مِنْ يَثْرِبَ حَتَّى وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى قَدِمَ ﷺ، فَلَمَّا سُبِينَا رَجَوْتُ الرُّؤْيَا، فَلَمَّا أَعْتَقَنِي وَتَزَوَّجَنِي مَا شَعَرْتُ إِلَّا بِجَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّي تُخْبِرُنِي بِفَكِّ الْأَسْرَى، فَحَمِدْتُ اللهَ تَعَالَى».

لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَظُهُورُ رِسَالَتِهِ مَبْعَثًا لِكَوَامِنِ الْغُرُورِ فِي نُفُوسِ الْحَاقِدِينَ مِنْ زُعَمَاءِ الْقَبَائِلِ وَرُؤَسَائِهَا، وَدَافِعًا لِبَعْضِهِمْ إِلَى الْمُغَامَرَةِ وَالشَّطَطِ، وَرُكُوبِ مَتْنِ الْهَوَى حُبًّا بِالسُّلْطَانِ وَالزَّعَامَةِ.

فَهَذَا «الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ» زَعِيمُ «بَنِي الْمُصْطَلِقِ» أَحَدِ بُطُونِ قَبِيلَةِ «خُزَاعَةَ»، الْكَثِيرَةِ الْعَدَدِ، الشَّدِيدَةِ الْبَأْسِ، الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْبَوَادِي، قَدْ عَزَّ عَلَيْهِ ـ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ ـ أَنْ يَرَى مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ بَلَغَ

مَجْدًا عَظِيمًا وَمَكَانَةً سَامِيَةً؛ كَمَا عَزَّ عَلَيْهِ الْتِفَافُ النَّاسِ وَتَكَاثُرُهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ.

لَقَدْ كَانَتْ مَخَافَتُهُ عَلَى زَعَامَتِهِ الْمَوْرُوثَـــةِ، وَمَجْدِهِ الْعَظِيمِ، تَدْفَعُهُ أَنْ يُوقِفَ الْمَدَّ عِنْدَ حَدٍّ؛ حَتَّى لَا يَأْتِيَ عَلَيْهِ، وَيُقَوِّضَ بُنْيَانَهُ مِنَ الْأَسَاسِ.

فَأَخَذَ يُحَرِّضُ النَّاسَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْقِتَالِ مُثِيرًا فِيهِمْ حَمِيَّتَهُمُ الْجَاهِلِيَّةَ، نَافِخًا فِيهِمْ رُوحَ الثَّأْرِ مِمَّنْ سَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ، وَعَابَ أَصْنَامَهُمْ؛ وَحَقَّرَ آلِهَتَهُمْ؛ وَهَدَّدَ سُلْطَانَهُمْ وَزَعَامَتَهُمْ، كَمَا زَلْزَلَ أَسَاسَ وُجُودِهِمُ الْقَبَلِيِّ وَالْعَشَائِرِيِّ وَجَاءَهُمْ بِبِدْعَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلَقِيَتْ دَعْوَتُهُ هَذِهِ آذَانًا صَاغِيَةً، وَنُفُوسًـــا عَطْشَـــى لِلدِّمَاءِ وَالْقِتَالِ، فَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ النَّاسِ، مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ.

ثُمَّ أَخَذَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلسَّيْرِ بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَالْقَضَاءِ عَلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ.

وَوَصَـــلَ إِلَى عِلْمِ النَّبِيِّ ﷺ مَا بَيَّتَ «الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ» النِّيَّةَ عَلَيْهِ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ وَاسْتَشَارَهُمْ، وَبَعْدَ الْبَحْثِ وَالْمُشَاوَرَةِ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يُوفِدُوا إِلَى «الْحَارِثِ» شَخْصًا يَسْتَيْقِنُ لَهُمْ حَالَهُ، وَيُطْلِعُهُمْ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ،وَلِيَعْلَمُوا أَيْضًا مَبْلَغَ اسْتِعْدَادِ «الْحَارِثِ» لِيَتَّخِذُوا لَهُ الْأُهْبَةَ وَالِاسْتِعْدَادَ الْكَافِيَيْنِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ.

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ شَخْصٌ اسْمُهُ «بُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ» مَشْهُورًا بِالذَّكَاءِ وَسَعَةِ الْحِيلَةِ، وَدِرَايَةٍ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَآزِقِ الصَّعْبَةِ، فَاخْتَارَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ، فَقَبِلَ «بُرَيْدَةُ» مُشْتَرِطًا أَنْ يَتْرُكَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ حُرِّيَّةَ التَّصَرُّفِ وَالتَّحَرُّكِ؛ فَأَذِنَ لَهُ بِذَلِكَ، وَتَمَنَّى لَهُ التَّوْفِيقَ فِي مُهِمَّتِهِ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثُمَّ تَجَهَّزَ «بُرَيْدَةُ» لِلرِّحْلَةِ، وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ زَادَهُ، شَدَّ الرِّحَالَ وَمَضَى وَحِيدًا إِلَّا مِنْ عَيْنِ اللهِ تَحْرُسُهُ وَتَرْعَاهُ؛ حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ؛ وَأَخَذَ يَدُورُ بَيْنَهُمْ، وَيَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ حَتَّى دَرَسَهَا وَوَعَاهَا، ثُمَّ أَتَى إِلَى «الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ» وَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَهُ «الْحَارِثُ»:

ـ مَنِ الرَّجُلُ؟

فَقَالَ «بُرَيْدَةُ»:

ـ مِنْكُمْ وَمَعَكُمْ، قَدِمْتُ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ جَمْعِكُمْ لِهَذَا الرَّجُلِ ـ يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ ـ فَأَسِيرُ فِي قَوْمِي وَمَنْ أَطَاعَنِي فَنَكُونُ يَدًا وَاحِدَةً حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ.

فَسُرَّ «الْحَارِثُ» مِنْ قَوْلِ «بُرَيْدَةَ»، وَبَدَتْ مَلَامِحُ الْفَرْحَةِ عَلَى وَجْهِهِ مِمَّا أَنْسَاهُ أَنْ يَسْتَزِيدَ «بُرَيْدَةَ» مَعْرِفَةً، فَيَسْأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ، وَقَبِيلَتِهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ فَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ، فَعَجِّلْ إِلَيْنَا.

فَقَالَ «بُرَيْدَةُ»:

ـ أَرْكَبُ الْآنَ وَآتِيكُمْ بِجَمْعٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِي.

وَخَرَجَ «بُرَيْدَةُ» مِنْ دِيَارِ الْقَوْمِ، وَمِنْ بَيْنِ حُشُودِهِمْ، سَالِمًا مُعَافًى كَمَا دَخَلَ، وَبِهَذِهِ الْحِيلَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ، وَعَادَ مُسْرِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ خَبَرَ الْقَوْمِ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنِ اسْتِعْدَادٍ وَحُشُودٍ، وَمَا جَمَعُوا مِنَ الْجُمُوعِ، وَأَعَدُّوا مِنَ الْعُدَّةِ.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى «بُرَيْدَةَ» وَعَرَفَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ، رَأَى مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَخْرُجَ لِلِقَاءِ الْقَوْمِ، وَيَغْزُوَهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ، وَيُفَاجِئَهُمْ.

فَدَعَا النَّاسَ لِلْخُرُوجِ وَقِتَالِ «بَنِي الْمُصْطَلِقِ» عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ، فَيُبَاغِتَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكُوا.

وَمِنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ انْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

كَانَتْ تَتَقَدَّمُ مَسِيرَةَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثُونَ مِنَ الْخَيْلِ، كَفِرْقَةٍ اسْتِطْلَاعِيَّةٍ تَتَعَرَّفُ إِلَى الطَّرِيقِ وَتَمْسَحُ الْأَمَاكِنَ، وَتُمَشِّطُهَا مِنَ الْعُيُونِ وَالْأَرْصَادِ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي مَسِيرَتِهِمْ رَأَوْا عَنْ بُعْدٍ خَيَالَ فَارِسٍ، فَأَطْلَقُوا لِخَيْلِهِمُ الْعِنَانَ وَأَحَاطُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَوَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ جَاسُوسٌ أَرْسَلَهُ «الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ» لِيَتَرَصَّدَهُمْ، وَلَمَّا عَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ أَبَى، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، وَلَوْ أَنَّهُ آمَنَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ.

وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الْجَاسُوسَ كَانَ مَعَهُ مُرَافِقٌ فَرَّ حِينَ رَأَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَحْدَقُوا بِصَاحِبِهِ، فَوَصَلَ إِلَى مُعَسْكَرِ «الْحَارِثِ» وَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَى، فَحَزِنَ أَشَدَّ الْحُزْنِ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ نَذِيرَ شُؤْمٍ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُ وَقَوْمُهُ خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَدَبَّ الْخَوْفُ وَالْهَلَعُ إِلَى نُفُوسِ النَّاسِ فَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَكْثَرُهُمْ، فَزَادَهُ ذَلِكَ هَمًّا عَلَى هَمٍّ.

وَاسْتَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي السَّيْرِ قُدُمًا حَتَّى بَلَغُوا مَكَانًا يُسَمَّى «الْمُرَيْسِيعَ» قَرِيبًا مِنْ دِيَارِ «بَنِي الْمُصْطَلِقِ»، فَعَسْكَرَ هُنَاكَ بِجَيْشِهِ، وَأَقَامَ قُبَّتَهُ (خَيْمَتَهُ)، ثُمَّ صَفَّ جُنُودَهُ وَرَتَّبَهُمْ وَهَيَّأَهُمْ لِلْقِتَالِ، وَأَعْطَى رَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ «لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَرَايَةَ الْأَنْصَارِ «لِسَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ أَمَرَ «عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُنْذِرَ الْأَعْدَاءَ وَيُنَادِيَ فِيهِمْ، وَكَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ:

ـ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَمْنَعُوا بِهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ.

وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ ـ وَلَا تَزَالُ ـ قَاعِدَةَ الْحُرُوبِ فِي الْإِسْلَامِ، الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، فَإِنِ اسْتَجَابَ النَّاسُ انْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْثِقُوا مِنْهُمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَرْبَ هِيَ الْحَلُّ الْأَخِيرُ.

فَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَقُولُوهَا، فَأَصْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَامِرَهُ لِلرُّمَاةِ أَنْ يَبْدَأُوا،

فَانْطَلَقَتِ السِّـــهَامُ غَزِيرَةً تَصُدُّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ هُجُومَ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ فَتْرَةً طَوِيلَةً.

ثُمَّ أَتْبَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرَهُ الْأَوَّلَ أَمْرًا ثَانِيًا، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ الْهُجُومُ صَاعِقًا شَـــدِيدًا، لَمْ يَلْبَثِ الْأَعْدَاءُ أَنْ فَرُّوا وَهُزِمُوا شَرَّ هَزِيمَةٍ، وَوَقَعَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ أَسْرَى فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وَبَلَغَ عَدَدُ الْأَسْرَى سَبْعَمِئَةِ أَسِيرٍ، وَسَـــبَى الْمُسْلِمُونَ النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ، وَغَنِمُوا الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ، وَالنَّعَمَ وَالشَّاءَ، فَكَانَتْ مِنَ الْإِبِلِ أَلْفَيْ بَعِيرٍ، وَمِنَ الشِّيَاهِ خَمْسَةَ آلَافٍ، وَفَرَّ «الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ» لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ السَّبْيِ بِنْتُ زَعِيمِ الْقَوْمِ «جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ»، فَأَعْتَقَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وكَانَتْ عَـــلَى جَانِبٍ مِنَ الْجَمَالِ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا إِكْرَامًا لَهَا؛ لِأَنَّهَا ابْنَةُ زَعِيمِ الْقَوْمِ وَسَيِّدِهِمْ.

وَلَقَـــدْ كَانَ زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ «جُوَيْرِيَةَ» خَيْـــرًا وَبَرَكَةً عَلَيْهَا وعَلَى قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا، وَهَذَا مِصْدَاقُ مَا رَأَتْهُ فِي مَنَامِهَا قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ.

فَمَا إِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِزَوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهَا حَتَّى قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ:

ـ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُبْقِيَ أَصْهَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبَايَا فِي أَيْدِينَا، ثُمَّ أَعْتَقَ كُلٌّ مِنْهُمْ سَـــبْيَهُ، وَدَخَلَ الْجَمِيعُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَنَعِمَ «بَنُو الْمُصْطَلِقِ» بِنِعْمَتَيِ الْإِسْلَامِ وَالْحُرِّيَّةِ.

وَظَلَّ «الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِـــرَارٍ» هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ، وَقَدْ أَفْقَدَتْهُ الْهَزِيمَةُ النَّكْرَاءُ اتِّزَانَهُ وَرَبَاطَةَ جَأْشِهِ، وَرَاحَ يَتَنَقَّلُ مِنْ حَيٍّ إِلَى حَيٍّ، وَمِنْ قَبِيلَةٍ إِلَى قَبِيلَةٍ حَتَّى اسْـــتَقَرَّ أَخِيرًا فِي «مَكَّةَ»، وَنَزَلَ بِسَاحَةِ قُرَيْشٍ لَائِذًا وَمُتَحَالِفًا، حَتَّى لَقِيَهُ أَحَدُهُمْ يَوْمًا فَأَخْبَرَهُ بِزَوَاجِ ابْنَتِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يَفْتَدِيَهَا وَيُخَلِّصَهَا عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ.

فَجَمَعَ بَعْـــضَ الْإِبِلِ وَقَدِمَ بِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا أَصْبَحَ فِي ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ فَـــرَأَى مِنْ بَيْنِهَا اثْنَيْنِ جَيِّدَيْـــنِ فَأَفْرَدَهُمَا جَانِبًا، وَانْطَلَقَ بِالْبَاقِي حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْتَأْمِنًا.

فَرَحَّبَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ «الْحَارِثُ»:

ـ إِنَّمَا جِئْتُ مُفْتَدِيًا ابْنَتِي.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ إِذَنْ مَا شَأْنُ الْبَعِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ تَرَكْتَهُمَا بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ؟

عِنْدَئِذٍ، تَلَفَّتَ «الْحَارِثُ» يَمِينًا وَيَسَارًا، وَقَالَ مُتَلَعْثِمًا:

ـ وَاللهِ مَا عَلِمَهُمَا أَحَدٌ قَطُّ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

وَهَكَذَا اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ النُّبُوَّةِ أَنْ يُدْرِكَ مَا فَعَلَهُ «الْحَارِثُ»، وَأَنْ يُفَاجِئَهُ بِسِـــرٍّ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، لِذَلِكَ اسْتَسْلَمَ «الْحَارِثُ» وَوَجَدَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَدَى «مُحَمَّدٍ» ﷺ لَيْسَتِ ادِّعَاءً وَلَا تَجَبُّرًا، بَلْ حَقِيقَةً وَرَحْمَةً.

وَلَقَدْ كَانَ الرُّعْبُ عَامِلًا مِنْ عَوَامِلِ الْهَزِيمَةِ الَّتِي أَحَاقَتْ بِالْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، إِذْ قَالَتْ «جُوَيْرِيَةُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

ـ لَمَّا أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ عَلَى «الْمُرَيْسِيعِ» سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

ـ أَتَانَـــا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ (أَيْ لَمْ نَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، عُدَّةً وَعَدَدًا)، فَلَبِثْتُ أَرَى مِنَ النَّاسِ وَالْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ مَا لَا أَصِفُ مِنَ الْكَثْرَةِ.

فَلَمَّا أَسْـــلَمْتُ وَتَزَوَّجَنِي رَسُـــولُ اللهِ ﷺ وَرَجَعْنَا، جَعَلْـــتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسُوا كَمَا كُنْتُ أَرَى، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ «رُعْبٌ» مِنَ اللهِ يُلْقِيهِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.

عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ غَزْوَةٍ، وَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالنَّصْـــرِ وَالظَّفَرِ، وَانْزَاحَتْ مِنْ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ عَقَبَةٌ كَؤُودٌ، وَمَضَى مَوْكِبُ الْإِيمَانِ فِي خَطِّهِ الصَّاعِدِ.

وَلَقَدْ كَانَ لِلْهَزِيمَةِ الَّتِي لَحِقَتْ « بَنِي الْمُصْطَلِقِ» أَثَرٌ بَالِغٌ فِي بَقِيَّةِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَفَّزُ إِلَى الْوُثُوبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمُهَاجَمَتِهِمْ، فَأَخْلَدُوا إِلَى السَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ؛ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ التَّصَدِّي لَهُمْ؛ لِكَيْ لَا يَلْحَقَ بِهِمْ مَا لَحِقَ بِبَنِي «الْمُصْطَلِقِ».

8

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

بَعْدَ أَنْ أَجْلَى النَّبِيُّ ﷺ «بَنِي النَّضِيرِ» مِنْ دِيَارِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، خَرَجَ بِهِمْ زَعِيمُهُمْ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» حَتَّى نَزَلُوا بِخَيْبَرَ، وَهِيَ بَلْدَةٌ تَقَعُ عَلَى بُعْدِ مِئَةِ مِيلٍ شَمَالِيَّ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي طَرِيقِ الشَّامِ.

فَأَقَامَهُمْ هُنَاكَ، وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ زَائِرًا لِأَبِي سُفْيَانَ «حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ» الَّذِي تَرْبِطُهُ بِهِ وَبِغَيْرِهِ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ رَوَابِطُ الْوُدِّ وَالصَّدَاقَةِ.

فَأَخَذَ يُشَجِّعُ قُرَيْشًا وَيُمَنِّيهَا الْأَمَانِيَّ الْكَثِيرَةَ لِغَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْتَثِيرُ حَمِيَّةَ أَبْنَائِهَا بِتَذْكِيرِهِمْ بِيَوْمِ «بَدْرٍ» وَيَوْمِ «أُحُدٍ»؛ كَمَا شَهِدَ لِدِينِهِمْ أَنَّهُ دِينُ الْحَقِّ، وَأَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ آلِهَةٌ حَقًّا، تُعْطِي وَتَمْنَعُ، وَأَنَّ

«مُحَمَّدًا» يَكْذِبُ وَيَفْتَرِي، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى طَلَبِهِمْ.

سُرَّ الْقُرَشِيُّونَ بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ تَصْدُرُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعَنْ زَعِيمٍ خَطِيرٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْيَهُودِ، فَوَعَدُوهُ خَيْرًا، وَرَاحُوا بَعْدَ ذَلِكَ يُؤَلِّبُونَ الْقَبَائِلَ وَيَدْعُونَهَا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُلَفَائِهِمْ وَمُعَاهِدِيهِمْ، كَقَبِيلَةِ «غَطَفَانَ» وَ«بَنِي سُلَيْمٍ» وَ«بَنِي أَسَدٍ» وَ«بَنِي مُرَّةَ» وَ«أَشْجَعَ» وَغَيْرِهِمْ.

فَاسْتَجَابَ لَهُمُ الْعَدَدُ الْكَبِيرُ، وَبَلَغَتْ عِدَّةُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، ضَاقَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ عَلَى رَحَابَتِهَا، وَالصَّحْرَاءُ عَلَى اتِّسَاعِهَا.

وَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِنِيَّتِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ عَلَى عَادَتِهِ؛ كَمَا أَكْثَرَ مِنْ دِرَاسَةِ الْمَوْقِفِ مَعَهُمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ هَذَا الْحَشْدِ الضَّخْمِ الَّذِي حَشَدَتْهُ قُرَيْشٌ، وَالَّذِي لَمْ تَعْرِفْهُ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ فِي نِيَّتِهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ أَنْ تَحْسِمَ الْأَمْرَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَبْدَى كُلٌّ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رَأْيَهُ، وَأَظْهَرَ مِنْ خِبْرَتِهِ مَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا لِلْمَوْقِفِ، وَعِنْدَمَا جَاءَ دَوْرُ «سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ كُنَّا فِي «فَارِسَ» إِذَا فَاجَأَنَا الْعَدُوُّ بِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَهَذِهِ الْكَثْرَةِ خَنْدَقْنَا حَوْلَنَا.

فَاسْتَصْوَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ رَأْيَ «سَلْمَانَ»، وَبَدَأُوا الْعَمَلَ بَعْدَ أَنْ شَمَّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ، وَوَصَلُوا اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، كَمَا سَاهَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَأَقَامُوا عَلَى الْعَمَلِ أَيَّامًا لَا يَكِلُّونَ وَلَا يَمَلُّونَ حَتَّى أَتَمُّوهُ.

وَكَانَ مَوْقِعُهُ بَيْنَ جَبَلِ «أُحُدٍ» وَجَبَلِ «سَلْعٍ»، وَاحْتَمَى الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ، وَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَالشُّيُوخَ الَّذِينَ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ فِي حَيٍّ مُحَصَّنٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَ مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنْ لَبِسَ دِرْعَهُ وَتَوَشَّحَ سَيْفَهُ، وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ مِغْفَرَهُ، وَبَلَغَتْ عِدَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ثَلَاثَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، ثُمَّ عَسْكَرُوا خَلْفَ الْخَنْدَقِ مُتَحَصِّنِينَ بِهِ، مُنْتَظِرِينَ سَاعَةَ الْمَعْرَكَةِ.

وَلَمَّا وَصَلَتْ قُرَيْشٌ مَعَ حُلَفَائِهَا فُوجِئُوا بِالْخَنْدَقِ يَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَقَامُوا مُعَسْكَرَهُمْ فِي الْعُدْوَةِ مِنْهُ (الْجَانِبِ الْآخَرِ)؛ وَلَبِثُوا يَتَحَيَّنُونَ الْفُرَصَ.

وَانْطَلَقَتْ كَوَاكِبُ مِنْ فُرْسَانِهِمْ تَذْرَعُ عَلَى جَانِبِ الْخَنْدَقِ جَيْئَةً وَذَهَابًا؛ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مِنْهُ فُرْجَةً أَوْ مَضِيقًا يَسْمَحُ لَهُمْ بِالِاجْتِيَازِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

وَكَانَ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» قَدْ وَعَدَهُمْ أَنْ يُقْنِعَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يُقِيمُونَ فِي الْمَدِينَةِ، فَيَنْقُضُونَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُقَاتِلُونَهُ مَعَ قُرَيْشٍ، فَإِذَا مَا تَغَلَّبُوا عَلَيْهِ وَرِثُوا الْمَدِينَةَ وَمَا فِيهَا، كَمَا أَنَّهُمْ بِهَذَا يَكُونُونَ قَدْ تَخَلَّصُوا مِنْ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ.

وَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الْحِصَارِ وَلَمْ يَحْظَ الْقُرَشِيُّونَ بِبُغْيَتِهِمُ اسْتَعْجَلُوا «حُيَيَّ ابْنَ أَخْطَبَ» وَعْدَهُ، وَطَالَبُوهُ بِهِ.

فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى دَارَ «كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ» سَيِّدِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، وَقَرَعَ الْبَابَ، وَلَمَّا عَرَفَ «كَعْبٌ» أَنَّ الطَّارِقَ هُوَ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» أَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ وَرَدَّهُ!

فَلَمْ يَنْصَرِفْ «حُيَيٌّ» وَظَلَّ يُرَاجِعُ «كَعْبًا» وَيُقْنِعُهُ بِفَتْحِ الْبَابِ لَهُ وَالسَّمَاحِ بِالدُّخُولِ حَتَّى اقْتَنَعَ عَلَى مَضَضٍ.

ثُمَّ جَلَسَ إِلَيْهِ يُحَاوِرُهُ وَيُغْرِيهِ وَيُمَنِّيهِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ الَّذِي بَيْنَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَبَيْنَ «مُحَمَّدٍ» حَتَّى اقْتَنَعَ.

وَعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ مِنْ أَرْصَادِهِ وَجَوَاسِيسِهِ، فَاسْتَدْعَى إِلَيْهِ «الزُّبَيْرَ ابْنَ الْعَوَّامِ» وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ دُورَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» مُسْتَعْلِمًا حَقِيقَةَ الْخَبَرِ، وَأَوْصَاهُ أَنْ لَا يُذِيعَهُ حَتَّى لَا يُضْعِفَ عَزِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يَفُتَّ فِي عَضُدِهِمْ.

فَمَضَى «الزُّبَيْرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَى دُورَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَاسْتَقْصَى مَا كُلِّفَ بِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَسَرَّ إِلَيْهِ بِأَنَّ «بَنِي قُرَيْظَةَ» قَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ فِعْلًا، لَكِنَّ الْخَبَرَ انْتَشَرَ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى، فَأُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِذُعْرٍ شَدِيدٍ مَا عَهِدُوهُ مِنْ قَبْلُ، وَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا، وَاضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا جَعَلَ قُلُوبَهُمْ تَخْفِقُ فِي صُدُورِهِمْ وَتَكَادُ تَبْلُغُ حَنَاجِرَهُمْ، إِذْ أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ قَدْ وَقَعُوا بَيْنَ شِقَّيْ رَحًى.

وَأَمْضَوْا أَيَّامَهُمْ وَلَيَالِيَهُمْ لَا يَغْمُضُ لَهُمْ جَفْنٌ، كَمَا انْقَطَعُوا عَنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ، وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَمِئَةٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَحْمُوا النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ.

لَقَدْ كَانَ فُرْسَـــانُ الْعَدُوِّ «قُرَيْشٍ وَالْأَحْزَابِ مَعَهُمْ» يُحَاوِلُونَ الْمُحَاوَلَاتِ الْكَثِيرَةَ لِمُبَاغَتَةِ الْمُسْـــلِمِينَ لَيْلًا مِنْ أَمَاكِنَ يَرَوْنَهَـــا ضَيِّقَةً مِنَ الْخَنْدَقِ، فَيَجْتَازُونَهَا إِلَى مُعَسْـــكَرِ الْمُسْـــلِمِينَ، كَمَا كَانَ الْمُسْـــلِمُونَ يُرَاقِبُونَهُمْ وَيَتَرَصَّدُونَهُمْ وَيَسْتَعِدُّونَ لَهُمْ كَيْ يَصُدُّوهُمْ.

وَلَقَدْ سَـــعَى مَرَّاتٍ كَثِيرَةً بَعْضُ فُرْسَانِ قُرَيْشٍ إِلَى ذَلِكَ فَلَمْ يُوَفَّقُوا وَلَمْ يُفْلِحُوا، وَدُقَّ عُنُقُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، بَيْنَمَا هُوَ يَقْفِزُ بِفَرَسِهِ.

وَفِي يَوْمٍ، خَرَجَ أَحَدُ فُرْسَانِهِمُ الْمَعْدُودِينَ الْمَشْهُورِينَ اسْمُهُ «عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيُّ» عَلَى فَرَسِهِ مُبَارِزًا وَقَدْ عَبَرَ الْخَنْدَقَ.

وَكَانَ اسْمُهُ يُرْعِبُ أَبْطَالَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً؛ لِمَا كَانَ يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ فُرُوسِيَّةٍ، وَيَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ قُوَّةٍ. وَأَخَذَ يُنَادِي فِي صُفُوفِ الْمُسْـــلِمِينَ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُمْ مَا أُذِنُوا مِنْ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَمَا رَاحَ يُعَيِّرُ الْمُسْلِمِينَ بِجُبْنِهِمْ، طَلَـــبَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ إِذْنَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ وَمُبَارَزَتِهِ، فَرَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ ضَنًّا بِـ «عَلِيٍّ»، وَقَالَ لَهُ:

ـ إِنَّهُ «عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ» يَا «عَلِيُّ»!!

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

ـ وَأَنَا «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، أَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِ.

وَأَلَحَّ «عَلِيٌّ» عَلَى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ كَيْ يَأْذَنَ لَـــهُ، فَأَذِنَ وَهُوَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَحْفَظَهُ وَيَرْعَاهُ، كَمَا أَلْبَسَهُ دِرْعَهُ وَقَلَّدَهُ سَيْفَهُ «ذَا الْفَقَّارِ».

وَلَمَّا خَرَجَ «عَلِيٌّ» إِلَى «عَمْرٍو» سَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ وَنَسَبِهِ، ثُمَّ اسْتَصْغَرَ شَأْنَهُ، وَقَالَ لَهُ مُسْتَخِفًّا بِهِ:

- إِنِّي وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي غَيْرُ حَرِيصٍ عَلَى قَتْلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ.

فَأَجَابَهُ «عَلِيٌّ»:

- أَمَّا أَنَا فَإِنِّي وَاللهِ حَرِيصٌ عَلَى قَتْلِكَ.

وَتَصَادَمَ الْفَارِسَانِ، وَعَلَا بَيْنَهُمَا الْغُبَارُ حَتَّى أَخْفَاهُمَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَضَرَبَ «عَمْرٌو» «عَلِيًّا» بِسَيْفِهِ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، فَتَلَقَّاهَا «عَلِيٌّ» بِدَرَقَتِهِ (تُرْسِهِ) فَغَرَزَ السَّيْفَ فِيهَا، وَعَاجَلَهُ «عَلِيٌّ» بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ قَطَعَتْ رَأْسَهُ حَتَّى عُنُقَهُ، وَسَقَطَ الْفَارِسُ الْمَغْرُورُ صَرِيعًا، وَانْجَلَى غُبَارُ الْمَعْرَكَةِ عَنْ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ عَادَ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا.

فَهَلَّلَ الْمُسْلِمُونَ وَكَبَّرُوا، كَمَا اسْتَاءَ الْقُرَشِيُّونَ وَأَسِفُوا.

وَظَلَّتِ الْمُنَاوَشَاتُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ قَائِمَةً عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ اشْتِبَاكٌ قِتَالِيٌّ بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ، وَدُونَ أَنْ يُسَجِّلَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ نَصْرًا أَوْ هَزِيمَةً.

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي بَيْنَمَا كَانَ فَارِسٌ مِنْ «غَطَفَانَ» اسْمُهُ «نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ» فِي خَيْمَتِهِ مَعَ الْأَحْزَابِ، شَعَرَ بِأَنَّ نُورًا يَدْخُلُ قَلْبَهُ، وَيَسْرِي فِي أَنْحَاءِ جِسْمِهِ وَجَوَارِحِهِ، فَهَبَّ وَاقِفًا، ثُمَّ خَرَجَ دُونَ أَنْ يُشْعِرَ أَحَدًا حَتَّى أَتَى مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَصَدَ تَوًّا إِلَى خِبَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

تُرَى، مَاذَا يُرِيدُ «نُعَيْمٌ»، وَمَا الَّذِي دَفَعَهُ إِلَى هَذَا التَّحَرُّكِ؟

لَقَدْ أَلْقَى اللهُ فِي قَلْبِهِ نُورَ الْإِسْلَامِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا.

وَكَانَ «نُعَيْمٌ» يَتَمَتَّعُ بَيْنَ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ بِمَرْكَزٍ مَرْمُوقٍ وَمَكَانَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَثِقُ بِهِمْ أَسْيَادُ «بَنِي قُرَيْظَةَ»؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَدِيمًا لَهُمْ، يُجَالِسُهُمْ فِي أَمَاكِنِ اللَّهْوِ وَيَسْقِي مَعَهُمُ الْخَمَرَ، وَهُوَ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ صَاحِبُ دَهَاءٍ وَحِيلَةٍ.

وَتَقَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ إِسْلَامَ «نُعَيْمٍ» وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ طَلَبَ «نُعَيْمٌ» مِنَ النَّبِيِّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِعَمَلٍ يَدْفَعُ بِهِ كَيْدَ الْأَحْزَابِ وَغَدْرَ الْيَهُودِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ إِنَّمَا أَنْتَ فَذٌّ (فَرْدٌ)، فَادْرَأْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، إِنَّمَا الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.

وَانْصَرَفَ «نُعَيْمٌ» حَتَّى أَتَى حَيَّ «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَدَخَلَ عَلَى «كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ» زَعِيمِهِمْ، وَحَدَّثَهُ وَأَلْقَى فِي رَوْعِهِ وُجُوبَ حُصُولِ الْيَهُودِ عَلَى ضَمَانٍ مِنَ الْأَحْزَابِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالِ رَحِيلِهِمْ وَتَخَلِّيهِمْ عَنْ قِتَالِ «مُحَمَّدٍ» سَيَجْعَلُ الْيَهُودَ لُقْمَةً سَائِغَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَسْتَأْصِلُونَهُمْ وَيَقْضُونَ عَلَيْهِمْ.

كَمَا اقْتَرَحَ عَلَى «كَعْبٍ» أَنْ يَطْلُبَ سَبْعِينَ شَخْصًا مِنْ رُءُوسِ الْقَوْمِ رَهَائِنَ عِنْدَهُ لِيَضْمَنَ اسْتِمْرَارَ الْحِصَارِ.

فَاقْتَنَعَ «كَعْبٌ» بِصَوَابِ فِكْرَةِ «نُعَيْمٍ»، كَمَا لَمْ يُخَالِجْهُ أَدْنَى شَكٍّ بِصِدْقِ نِيَّتِهِ؛ فَهُوَ غَيْرُ مُتَّهَمٍ عِنْدَهُ.

كَانَتْ هَذِهِ الْمُحَادَثَةُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ «نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ» وَبَيْنَ «كَعْبِ بْنِ أَسَـــدٍ» هِيَ الْفَصْلَ الْأَوَّلَ فِي مَوْضُوعِ (الْمُؤَامَرَةِ ـ الْخَدِيعَةِ) الَّتِي أَرَادَ لَهَا «نُعَيْمٌ» أَنْ تَتِمَّ فُصُولًا.

ثُمَّ انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَرْبِطَ خُيُوطَهَا.

فَعَادَ إِلَى مُعَسْكَرِ «الْأَحْزَابِ» وَاخْتَلَى بِـ «أَبِي سُفْيَانَ» وَقَالَ لَهُ:

ـ إِنَّنِي وَلَا شَـــكَّ غَيْرُ مُتَّهَمٍ عِنْدَكَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ الْيَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ الَّـــذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «مُحَمَّدٍ»، كَمَا عَلِمْتُ بِأَنَّ الْيَهُودَ سَوْفَ يَطْلُبُونَ إِلَيْنَا تَسْـــلِيمَهُمْ بَعْضَ الرَّهَائِنِ، كَيْ يَتَثَبَّتُوا مِنْ بَقَائِنَا هُنَا مُحَاصِرِينَ لِلْمُسْـــلِمِينَ ظَاهِرِيًّا، وَلَكِنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَهَا إِلَى «مُحَمَّدٍ» لِيَضْرِبَ أَعْنَاقَهَا؛ تَدْلِيلًا لَهُ عَلَى حُسْنِ نِيَّتِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِي نَدَمِهِمْ.

كَمَا أَرْجُو أَنْ تَأْخُذُوا مَعْلُومَاتِي هَذِهِ مُصَدَّقَةً لَا يَرْقَى إِلَيْهَا الشَّـــكُّ أَبَدًا، فَإِذَا رَغِبْتُمْ أَنْ تَسْتَيْقِنُوا مِنْ صِدْقِ أَقْوَالِي، فَاطْلُبُوا إِلَى الْيَهُودِ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِمُهَاجَمَةِ الْمُسْلِمِينَ غَدًا.

وَلَسَوْفَ تَرَوْنَ...

وَقَعَ كَلَامُ «نُعَيْمٍ» عِنْدَ «أَبِي سُفْيَانَ» مَوْقِعَ الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَشُكَّ أَبَدًا فِي صِدْقِ «نُعَيْمٍ» وَإِخْلَاصِهِ.

فَقَـــامَ عَلَى الْفَوْرِ وَكَلَّمَ رِفَاقَهُ مِنَ الْقَادَةِ وَالزُّعَمَاءِ، فَأَصْغَوْا إِلَى قَوْلِهِ، ثُمَّ اتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى مُطَالَبَةِ الْيَهُودِ بِالْقِتَالِ.

وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ مَنْ يُعْلِنُهُمْ قَرَارَ الْأَحْزَابِ بِبَدْءِ الْقِتَالِ صَبَاحَ الْيَوْمِ التَّالِي، وَعَلَى الْيَهُودِ أَنْ يَقُومُوا بِتَعَهُّدَاتِهِمْ، وَيُنَفِّذُوا وَعْدَهُمْ.

فَاعْتَذَرَ «بَنُو قُرَيْظَةَ» أَنَّهُمْ لَا يُحَارِبُونَ فِي السَّبْتِ؛ لِأَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَحْظُرُهُ عَلَيْهِمْ كُتُبُهُمْ وَتَوْرَاتُهُمْ، كَمَا أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ يَسْتَوْثِقُوا مِنْ صِدْقِ الْأَحْزَابِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ فِي حِصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ، فَيُعْطُوهُمْ سَبْعِينَ رَهِينَةً مِنْ رِجَالِهِمْ.

وَعِنْدَمَا تَلَقَّتِ الْأَحْزَابُ رَدَّ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، تَبَدَّى وَاضِحًا صِدْقُ «نُعَيْمٍ». إِذَنْ، نَجَحَتْ خُطَّةُ «نُعَيْمٍ» فِي فَكِّ الْحِصَارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَأُسْقِطَ فِي يَدِ الْأَحْزَابِ، وَتَسَرَّبَ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ إِلَى نُفُوسِهِمْ، وَانْصَرَفَتْ بَعْضُ الْقَبَائِلِ إِلَى دِيَارِهَا، وَتَخَلَّتْ عَنْ مَوَاقِعِ الْقِتَالِ وَالْمُوَاجَهَةِ، كَمَا أَنَّ «أَبَا سُفْيَانَ» الَّذِي كَانَ الْمُحَرِّضَ الْأَوَّلَ عَلَى الْغَزْوِ وَالْخُرُوجِ بِهَذَا الْحَشْدِ الْحَاشِدِ مِنْ مَكَّةَ، أَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْعَوْدَةِ، وَيُبَشِّرُ بِذَلِكَ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ.

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ، كَانَ بَارِدًا شَدِيدَ الْبُرُودَةِ، الرِّيَاحُ تَهُبُّ قَوِيَّةً عَاصِفَةً، وَالْمُسْلِمُونَ فِي غَايَةِ الْإِرْهَاقِ وَالتَّعَبِ، وَهُمْ لَمْ يَرَوْا فِي غَزَوَاتِهِمُ السَّابِقَةِ خَوْفًا يَعْتَمِلُ فِي نُفُوسِهِمْ كَمَا حَدَثَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ.

وَانْتَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدَ أَصْحَابِهِ، وَاسْمُهُ «حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ» لِيَدْخُلَ فِي مُعَسْكَرِ الْأَحْزَابِ يَسْتَطْلِعُ حَالَهُمْ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَأْيٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ

أَنْ تَخَلَّتْ عَنْهُمْ «بَنُو قُرَيْظَةَ»، وَبَعْدَمَا سَمِعَ أَنَّ دَعْوَةَ الِانْسِحَابِ تَتَجَاوَبُ أَصْدَاؤُهَا فِي جَوَانِبِ مُعَسْكَرِهِمْ.

وَكَانَ «حُذَيْفَةُ» يَشْعُرُ بِالْبَرْدِ يَسْرِي فِي أَوْصَالِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْحَرَكَةَ، لَكِنَّ أَمَرَ النَّبِيِّ ﷺ وَاجِبَ التَّنْفِيذِ، فَخَرَجَ مُتَسَلِّلًا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَرِيحِهِ الْعَاصِفِ حَتَّى بَلَغَ مُعَسْكَرَ الْأَحْزَابِ، وَدَخَلَ فِي وَسَطِ الْمُعَسْكَرِ حَتَّى بَلَغَ خَيْمَةَ الْقِيَادَةِ، وَكَانَ الظَّلَامُ دَامِسًا وَشَامِلًا، وَجَلَسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَمَرَّ فِي جَلْسَتِهِ هَذِهِ يَسْتَمِعُ إِلَى «أَبِي سُفْيَانَ» وَغَيْرِهِ مِنَ الْقَادَةِ يَتَحَدَّثُونَ، وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الْفَجْرِ، وَآذَنَ النَّهَارُ بِالِانْبِلَاجِ، غَادَرَهُمْ كَمَا أَتَاهُمْ مُتَسَلِّلًا لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ، وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا يُطَمْئِنُهُ وَيُطَمْئِنُ الْمُسْلِمِينَ، وَيُبَلِّغُهُمْ مَدَى الِانْهِيَارِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ جُنُودُ الْأَحْزَابِ.

وَبَيْنَ عَوْدَةِ «حُذَيْفَةَ» وَحَدِيثِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، كَانَتِ الرِّيحُ قَدِ اشْتَدَّتْ أَكْثَرَ مِنْ قَبْلُ، وَهَبَّتْ عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ عَاتِيَةٌ عَلَى مُعَسْكَرِ الْأَحْزَابِ، فَاقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ، وَأَكْفَأَتْ قُدُورَهُمْ وَبَعْثَرَتْ حَوَائِجَهُمْ، فَظَنُّوا كَأَنَّ نَازِلَةً حَلَّتْ بِهِمْ، أَوْ أَنَّ زِلْزَالًا مُدَمِّرًا يُوشِكُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ قَائِلُهُمْ:

ـ وَاللهِ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ مُقَامٍ، وَلَئِنْ بَقِينَا لَيُقْضَيَنَّ عَلَيْنَا.

فَأَسْرَعُوا يُلَبُّونَ دَاعِيَ الْهَزِيمَةِ وَالْفِرَارِ.

وَمَعَ خُيُوطِ الشَّـــمْسِ الْأُولَى، كَانَتِ الْأَرْضُ خِلْـــوًا مِنْ كُلِّ أَثَرٍ لِلْأَحْزَابِ؛ فَفَرِحَ الْمُسْـــلِمُونَ وَاسْتَبْشَرُوا، وَنَقَلُوا الْخَبَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَحَمِدَ اللهَ شَاكِرًا فَضْلَهُ وَنِعْمَتَهُ.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ﴾؛ وَعَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَامِدِينَ للهِ تَعَالَى بَرَكَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ.

9

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

كَانَ «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ أُصِيبَ يَوْمَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ بِسَهْمٍ جَرَحَهُ جُرْحًا بَالِغًا، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْمِلُوا «سَعْدًا» إِلَى خَيْمَةِ «رُفَيْدَةَ» أَوْ «كُعَيْبَةَ بِنْتِ سَعْدٍ الْأَسْلَمِيَّةِ» فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ. وَكَانَتْ «رُفَيْدَةُ» هَذِهِ مِنْ بَنِي «أَسْلَمَ» مُسْلِمَةً مُؤْمِنَةً، اتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا خَيْمَةً تُدَاوِي فِيهَا جَرْحَى الْمَعَارِكِ.

وَلَقَدْ عَانَى «سَعْدٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسَبَبِ هَذَا الْجُرْحِ مُعَانَاةً شَدِيدَةً، فَكَانَ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَرَى نِهَايَةَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» الَّذِينَ غَدَرُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَهُمْ، مِمَّا أَوْقَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَلْبَلَةٍ وَذُعْرٍ وَخَوْفٍ، وَجَرَّأَ عَلَيْهِمُ الْأَحْزَابَ.

وَكَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ كَتَبَ عَلَى يَهُودِ الْمَدِينَةِ جَمِيعِهِمْ أَنْ يَنْكَشِفُوا لِلنَّاسِ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ.. حَقِيقَةِ الْخَدِيعَةِ وَالْغَدْرِ، وَأَنْ يَكُونَ جَزَاؤُهُمْ

جَمِيعًـــا الْجَلَاءَ عَنِ «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» بِنُـــورِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَأَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ خَالِصَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، طَاهِرَةً مِنْ رِجْسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

فَمَا إِنْ وَطِئَتْ قَدَمَا النَّبِـــيِّ ﷺ أَرْضَ «الْمَدِينَةِ» بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ حَتَّى نَزَعَ عَنْهُ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ يَغْتَسِلُ لِيُزِيلَ عَنْ جَسَدِهِ غُبَارَ الْمَعْرَكَةِ، وَمَا إِنْ أَشْـــرَفَ عَلَى الِانْتِهَاءِ حَتَّى نَادَتْهُ «عَائِشَةُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَائِلَةً إِنَّ بِالْبَابِ مَنْ يَسْـــأَلُ عَنْهُ، فَخَرَجَ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ اغْتِسَـــالَهُ، فَوَجَدَ بِالْبَابِ فَارِسًا يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يُسْرِعَ وَيَأْمُرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَسِيرِ إِلَى «بَنِي قُرَيْظَةَ».

فَدَخَلَ بَيْتَهُ لِيُعِيدَ ارْتِدَاءَ دِرْعِهِ وَيَتَوَشَّـــحَ سَـــيْفَهُ وَيَغْدُوَ مِنْ ثَمَّ عَلَى الْمُسْـــلِمِينَ، فَيَخْرُجَ بِهِمْ إِلَى تَأْدِيبِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَسَأَلَتْهُ «عَائِشَةُ» عَنِ الْفَارِسِ، وَكَأَنَّهَا تَرَى فِيهِ شَخْصًا تَعْرِفُهُ يُشْبِهُ «دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ»، فَقَالَ ﷺ:

- إِنَّهُ جِبْرِيلُ فِي جَيْشٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَأْمُرُنَا بِالزَّحْفِ مَعَهُ إِلَى «بَنِي قُرَيْظَةَ».

ثُمَّ خَرَجَ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ وَنَادَى فِي النَّاسِ:

- مَنْ كَانَ سَـــمِيعًا مُطِيعًا فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا فِي «بَنِي قُرَيْظَةَ»، وَكَانَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى سِـــلَاحِهِمْ، فَتَجَمَّعُوا عَلَى نِدَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُلَبُّونَ دَعْوَتَهُ، ثُمَّ زَحَفَ بِهِمْ قَائِلًا:

- يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي.

بَعْدَ أَنْ أَعْطَى اللِّوَاءَ إِلَى «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَجَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، وَأَمَرَهُ بِالانْطِلَاقِ.

وَصَلَتْ أَنْبَاءُ الزَّحْفِ إِلَى «بَنِي قُرَيْظَةَ» بِقِيَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَحَصَّنُوا دَاخِلَ حُصُونِهِمْ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابَ، وَكَانَ مَعَهُمْ دَاخِلَ حُصُونِهِمُ الْيَهُودِيُّ الْحَقُودُ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ» الَّذِي كَانَ قَدْ شَجَّعَهُمْ عَلَى نَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ أَنْ يَثْأَرَ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ أَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْمَدِينَةِ.

وَتَقَدَّمَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» مِنْ أَسْوَارِ الْحِصْنِ، وَرَكَّزَ الرَّايَةَ تَحْتَهُ، فَأَخَذَ يَهُودُ «بَنِي قُرَيْظَةَ» يَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْحِجَارَةِ، وَيَشْتُمُونَهُمْ، وَيُقْذِعُونَ فِي سَبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَفْحَشُوا فِي الْقَوْلِ، عِنْدَئِذٍ عَادَ «عَلِيٌّ» مُسْرِعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَتَلَقَّاهُ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى الْحِصْنِ؛ حَتَّى لَا يَسْمَعَ مَا يُؤْذِيهِ، أَوْ يَخْدِشَ سَمْعَهُ فُحْشُهُمْ وَبَذَاءَتُهُمْ، فَلَمَّا بَلَغَهُ قَالَ لَهُ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ ، لَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْنُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَخَابِثِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ لَعَلَّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذًى؟

قَالَ «عَلِيٌّ»:

ـ نَعَمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا.

ثُمَّ دَنَا ﷺ مِنَ الْحِصْنِ وَأَخَذَ يُنَـــادِي زُعَمَاءَهُمْ فَرْدًا فَرْدًا، حَتَّى أَطَلُّوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ:

ـ أَجِيبُـــوا يَا إِخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ وَعَبَـــدَةَ الطَّاغُوتِ، هَلْ أَخْزَاكُمُ اللهُ، وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟ أَتَشْتُمُونِي؟!

فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ وَيُقْسِمُونَ بِأَغْلَظِ الْأَيْمَانِ كَذِبًا وَزُورًا وَبُهْتَانًا، وَيَقُولُونَ:

ـ مَا قُلْنَا. (خَوْفًا وَرَهْبَةً وَنِفَاقًا).

ثُمَّ نَادَاهُمْ حَلِيفُهُمُ السَّابِقُ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ـ يَا أَعْدَاءَ اللهِ لَا تَبْرَحُوا حُصُونَكُمْ حَتَّـــى تَمُوتُوا جُوعًا، إِنَّمَا أَنْتُمْ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ.

وَلَقَدْ أَصَابَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ نِدَائِهِ الْخَوْفُ الشَّدِيدُ وَالْهَلَعُ الْمُمِيتُ.

وَطَـــالَ أَمَدُ الْحِصَارِ، وَكَانَ طَعَامُ الصَّحَابَةِ وَالْمُسْـــلِمِينَ خِلَالَهُ التَّمْرَ وَحْدَهُ، يُرْسِلُهُ إِلَيْهِمْ «سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَأَيْقَنَ «بَنُو قُرَيْظَةَ» أَنَّ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ لَـــنْ يُغَادِرَهُمْ حَتَّى يُنَاجِزَهُمْ وَيُقَاتِلَهُمْ، عِنْدَئِذٍ اجْتَمَعَ رُؤَسَاؤُهُمْ وَسَادَتُهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ سَيِّدُهُمْ «كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ» مُقْتَرِحًا عَلَيْهِمْ:

ـ يَا مَعْشَـــرَ يَهُودَ، قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيَّهَا شِئْتُمْ.

فَقَالُوا مُسْتَفْسِرِينَ:

- وَمَا هِيَ؟ (وَهُمْ فِي وَاقِعِ تَصَوُّرِهِمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوا بِرَأْيٍ إِلَّا مِنْ خِلَالِ غَدْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ).

قَالَ:

- إِمَّا أَنْ نُتَابِعَ هَذَا الرَّجُلَ (يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ) وَنُصَدِّقَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ، فَتَأْمَنُونَ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ، فَلْنَقْتُلْ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَنَخْرُجْ إِلَى «مُحَمَّدٍ» وَأَصْحَابِهِ رِجَالًا مُصَلِّتِينَ السُّيُوفَ لَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا ثِقْلًا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ «مُحَمَّدٍ»، فَإِنْ أَبَيْتُمْ هَذِهِ أَيْضًا فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ «مُحَمَّدٌ» وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمَّنُونَا فِيهَا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ «مُحَمَّدٍ» وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً.

لَكِنَّ الْيَهُودَ رَفَضُوا اقْتِرَاحَاتِ «كَعْبِ بْنِ أُسَيْدٍ» جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَأَصَرُّوا عَلَى الِاسْتِمْرَارِ فِي الْحِصَارِ، لَعَلَّ الْيَأْسَ يُصِيبُ «مُحَمَّدًا» وَصَحْبَهُ، فَيَزُولُوا عَنْهُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا رَفَضُوا أَيْضًا اقْتِرَاحًا تَقَدَّمَ بِهِ إِلَيْهِمْ أَحَدُ زُعَمَائِهِمْ وَاسْمُهُ «عَمْرُو بْنُ سُعْدَى»، وَيَهْدِفُ إِلَى دَفْعِ الْجِزْيَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْإِقَامَةِ عَلَى دِينِ الْيَهُودِيَّةِ.

لَقَدْ كَانَ خَوْفُهُمْ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ عُنْوَانَ رَفْضِهِمُ الْمُتَوَاصِلِ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي لَدَدِهِمْ، وَنِقَاشِـــهِمْ، وَتَرَدُّدِهِمْ بَيْنَ الْمُقْتَرَحَاتِ طِيلَةَ أَيَّامٍ، فُوجِئُوا بِمُقَدِّمَةِ جَيْشِ الْمُسْـــلِمِينَ بِقِيَادَةِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ، وَأَصْبَحَتْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَأُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ.

عِنْدَئِذٍ أَرْسَـــلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ يُفَاوِضُهُ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا أَصَابَ «بَنِي النَّضِيرِ» مِنْ قَبْلُ، فَيُسْمَحُ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ آمِنِينَ سَالِمِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَمَا دَرُوا أَنَّ فِتْنَتَهُمْ وَغَدْرَهُمْ كَادَتْ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَصَلَ «شَاسُ بْنُ قَيْسٍ» إِلَى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ يَسْتَرْضِيهِ فِي شَأْنِهِمْ، عَلَى أَنْ يَتْرُكَ لَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَذَرَارِيَّهُـــمْ يُغَادِرُونَ بِهَا الْمَدِينَةَ، مُخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمْ دُورَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَنَازَلُوا تَنَازُلَاتٍ كَثِيرَةً، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَصَرَّ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ هُوَ، وَدُونَ شُرُوطٍ مُسْبَقَةٍ مِنْهُمْ، وَلَا مَجَالَ لِلْمُفَاوَضَةِ أَوِ الصُّلْحِ مَعَهُمْ.

وَأَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ، وَحَارُوا فِي أَمْرِهِمْ، وَخَطَرَ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَطْلُبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُوفِدَ إِلَيْهِمْ شَخْصًا يُسَاكِنُهُمْ لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتَهُمْ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِ «أَبِي لُبَابَةَ» «رِفَاعَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ» لِيَسْتَشِيرُوهُ وَيُوَسِّطُوهُ فِي شَأْنِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ «أَبُو لُبَابَةَ» يَسْكُنُ بَيْنَهُمْ، وَيُقِيمُ هُوَ وَأَهْلُهُ وَعِيَالُهُ فِي وَسَـــطِهِمْ، فَسَأَلُوهُ رَأْيَهُ، وَأَظْهَرُوا لَهُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ، وَتَبَاكَوْا أَمَامَهُ، وَقَالُوا:

ـ أَشِرْ عَلَيْنَا يَا «أَبَا لُبَابَةَ».

فَقَالَ وَقَدْ رَقَّ لِحَالِهِمْ:

ـ أَرَى أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِلَّا...

ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ يَعْنِي الذَّبْحَ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ وَشَعَرَ بِأَنَّهُ قَدْ أَذْنَبَ فِي اسْتِبَاقِهِ حُكْمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِعْلَامَ الْيَهُودِ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ وَرَبَطَ نَفْسَهُ إِلَى عَمُودٍ مِنْ أَعْمِدَتِهِ بِسِلْسِلَةٍ حَدِيدِيَّةٍ ثَقِيلَةٍ، نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، حَالِفًا بِاللهِ أَنْ لَا يَفُكَّ نَفْسَهُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ، وَبَقِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ سِتَّةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا، مُعَرِّضًا نَفْسَهُ لِزَمْهَرِيرِ اللَّيْلِ، وَلَهَبِ شَمْسِ النَّهَارِ، يَأْتِيهِ أَهْلُهُ بِالطَّعَامِ فَيُعْرِضُ عَنْهُ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

وَهَكَذَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى «بَنِي قُرَيْظَةَ» قَاسِيَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ رَضُوا أَخِيرًا أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» كَمَا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، «سَعْدٌ» الْجَرِيحُ بِسَبَبِ غَدْرِهِمْ، «سَعْدٌ» الَّذِي سَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ لَا يُمِيتَهُ حَتَّى يَرَى نِهَايَتَهُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَتَهُ أَتَاحَهَا اللهُ لَهُ وَفَاءً لِدُعَائِهِ الْمُخْلِصِ.

فَحُمِلَ «سَعْدٌ» عَلَى سَـــرِيرٍ حَتَّى أُتِيَ بِهِ إِلَى الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَوْثَقَ مِنَ التَّحْكِيمِ وَرَضِيَ جَمِيعُ الْأَطْرَافِ بِهِ، أَعْطَى حُكْمَهُ، وَكَانَ حُكْمًا عَادِلًا، فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُ سَـــبْعِمِئَةٍ مِنْ «بَنِي قُرَيْظَةَ» جَزَاءَ نِفَاقِهِمْ وَغَدْرِهِمْ، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ، وَاسْتُبِيحَتْ أَمْوَالُهُمْ.

وَكَانَ الْجَزَاءُ جَزَاءً عَادِلًا مَا نُسِـــيَتْ فِيهِ تِلْكَ الْأَيَّامُ السُّـــودُ الَّتِي مَرَّتْ بِالْمُسْـــلِمِينَ وَهُمْ مُحَاصَرُونَ بَيْنَ عَدُوَّيْنِ شَرِسَيْنِ عِنْدَ «الْخَنْدَقِ»: قُرَيْشٍ وَالْأَحْزَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَالْيَهُودِ وَغَدْرِهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ.

الْيَهُودُ الَّذِينَ أَعْطَاهُمْ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ عَهْـــدَهُ وَمِيثَاقَهُ، مُجَرِّبًا لَهُمْ أَنْ يَتَعَايَشُوا مَعَ الْمُسْـــلِمِينَ فِي ظِلٍّ مِنَ التَّرَاحُمِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَكِنَّهُمْ بِطَبْعِهِمْ أَهْلُ غَدْرٍ وَنِفَاقٍ.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾.

وَهَكَذَا، نَظُفَـــتِ الْمَدِينَةُ مِنْ كُلِّ أَثَرٍ لِلْيَهُودِ، وَظَلَّـــتْ نَقِيَّةً صَافِيَةً مِنْ رِجْسِهِمْ وَخُبْثِهِمْ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

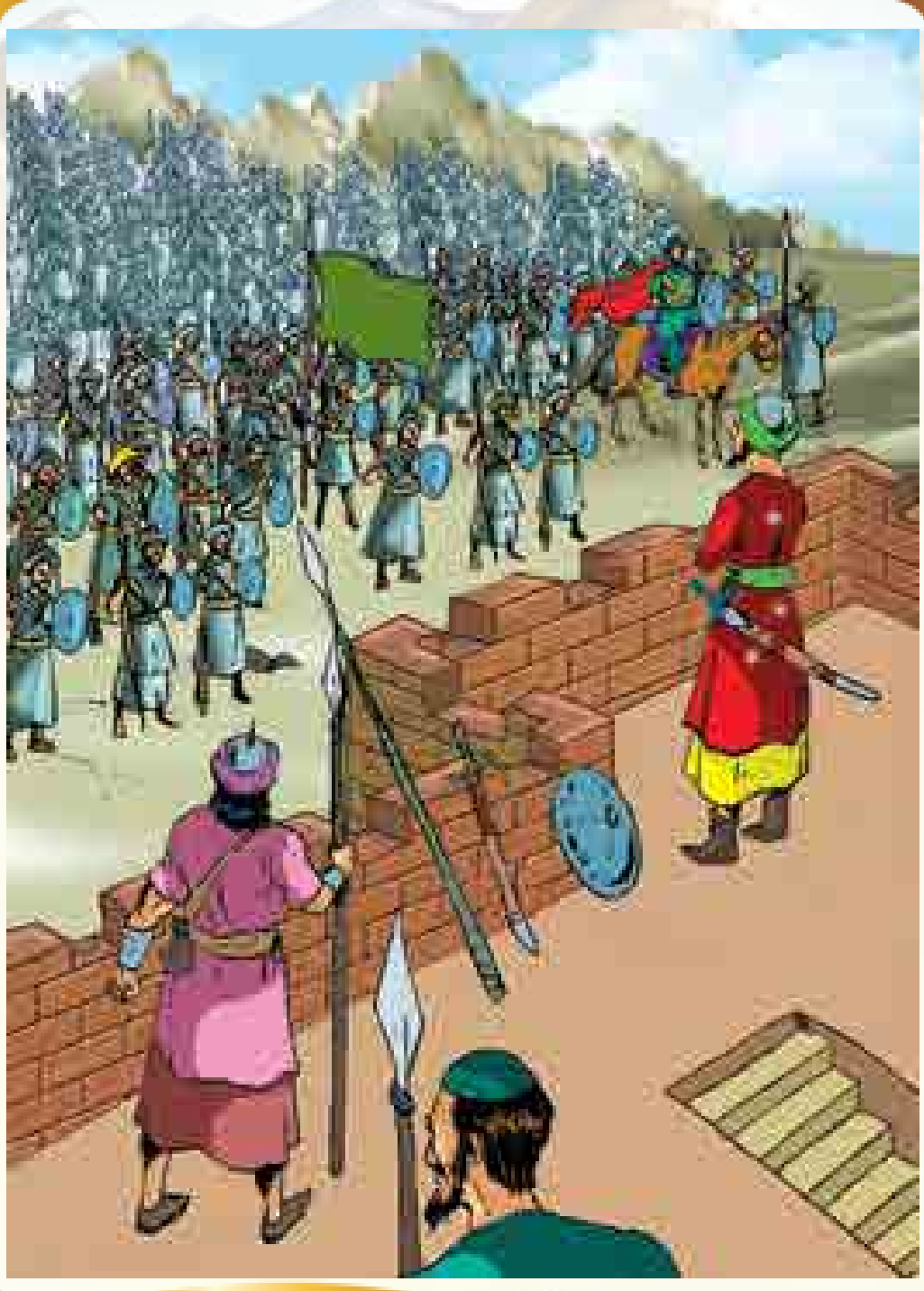

10

صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ

صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ

قَالَ تَعَـــالَى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَطَلَّعُ شَوْقًا إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي تُؤْمِنُ فِيهِ قُرَيْشٌ، وَيَهْفُو قَلْبُهُ إِلَى مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ مِنْهَا وَهُوَ كَارِهٌ، كَمَا كَانَ ﷺ يَتَشَوَّقُ إِلَى تَطْهِيرِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ مِنْ رِجْسِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَإِعَادَةِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَى سَـــابِقِ صَفَائِهِ يَوْمَ أَقَامَ قَوَاعِدَهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي شَـــهْرِ شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ السَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ رَأَى ﷺ فِي مَنَامِهِ حُلْمًا، رَأَى أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ مَكَّةَ مَعَ أَصْحَابِهِ الْمُسْـــلِمِينَ مُحْرِمًا مُؤَدِّيًا لِلْعُمْرَةِ (الزِّيَارَةِ)، وَقَدْ سَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ مُعَظِّمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ، مُقَدِّسًا لَهُ.

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، اسْتَرْجَعَ فِي نَفْسِـــهِ مَرَاحِلَ هَذَا الْحُلْمِ الْجَمِيلِ الَّذِي كَانَ يُدَاعِبُ مُخَيِّلَتَهُ، وَتِلْكَ الْأُمْنِيَّـــةِ الَّتِي كَانَ يَهْفُو إِلَيْهَا؛ ثُمَّ حَدَّثَ بِذَلِكَ أَزْوَاجَهُ وَأَصْحَابَهُ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَتَهَيَّئُوا لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، كَمَا أَرْسَلَ إِلَى قَبَائِلِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَوَادِيَ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ؛ فَلَبَّى بَعْضُهُمْ، وَأَحْجَمَ الْبَعْضُ الْآخَرُ خَوْفًا مِنْ إِقْدَامِهِمْ عَلَى مُرَافَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ قُرَيْشًا سَتَتَصَدَّى لَهُمْ، وَسَتَمْنَعُهُمْ بِالْقُوَّةِ، وَقَدْ يَحْصُلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ قِتَالٌ.

أَمَّا الَّذِينَ لَبَّوْا نِدَاءَهُ ﷺ فَكَانَ أَكْثَرُهُـــمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّـــةَ، فَقَدْ كَانُوا يَرْغَبُونَ بِرُؤْيَةِ الْبَلَدِ الَّذِي أُخْرِجُوا مِنْهُ كَارِهِينَ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ عَدَدُ هَؤُلَاءِ أَلْفًا وَخَمْسَمِئَةِ نَسَمَةٍ.

خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَقَدْ سَاقُوا مَعَهُمُ الْهَدْيَ مِنَ الْمَاشِيَةِ وَالْإِبِلِ، إِشْعَارًا لِقُرَيْشٍ بِأَنَّ هَذَا الْخُرُوجَ لَيْسَ لِحَرْبٍ وَلَا لِقِتَالٍ، وَلَكِنْ أَدَاءً لِوَاجِبٍ دِينِيٍّ، وَتَعْظِيمٍ لِبَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَتَقْدِيسٍ لَهُ.

وَكَانَ خُرُوجُهُمْ فِي أَوَّلِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتٍّ لِلْهِجْرَةِ.

لَمْ يَكُنْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَّا سِـــلَاحُ الْمُسَافِرِ؛ السُّيُوفُ فِي أَغْمَادِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي نِيَّتِهِ ﷺ أَنْ يُحَارِبَ قُرَيْشًـــا، أَوْ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهَا فِي قِتَالٍ. فَلَمَّـــا بَلَغَ «ذَا الْحُلَيْفَةَ» أَحْرَمَ مَعَ إِخْوَانِهِ، كَمَا أَرْسَـــلَ عَيْنًا لَهُ (أَيْ جَاسُوسًـــا) إِلَى مَكَّةَ، لِيُطْلِعَهُ عَلَى أَخْبَارِ قُرَيْشٍ، مَا الَّذِي سَتَفْعَلُهُ؟ وَمَا هُوَ مَدَى وَقْعِ نَبَإِ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا؟

غَذَّ الرَّجُلُ فِي السَّيْرِ، وَأَرْهَقَ رَاحِلَتَهُ حَتَّى بَلَغَ مَكَّةَ، وَرَاحَ يَجُوبُ نَوَادِيَهَا وَأَحْيَاءَهَا، وَيَقِفُ عَلَى جَمِيعِ أَخْبَارِهَـــا وَتَصَرُّفَاتِهَا وَأَقْوَالِ زُعَمَائِهَا، وَمَا أَزْمَعَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ عَادَ خَفِيفًا كَمَا انْطَلَقَ، لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى «غَدِيرَ الْأَشْطَاطِ»، فَقَالَ:

ـ إِنَّ قُرَيْشًا سَمِعُوا بِمَسِـــيرِكَ، فَخَرَجُوا وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ (الْعُوذُ: أُنْثَى الْجَمَلِ ذَاتُ اللَّبَنِ) وَ (الْمَطَافِيلُ: الْأُمَّهَاتُ ذَوَاتُ الْأَطْفَالِ) قَدْ تَلَبَّسُوا جُلُودَ النُّمُورِ وَقَدْ نَزَلُوا بِـ «ذِي طُوًى»، يُعَاهِدُونَ اللهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا (أَيْ مَكَّةَ) عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا.

وَلَقَدْ حَدَثَ أَنَّنِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَطُـــوفُ بِالْبَيْتِ، إِذْ صَرَخَ صَارِخٌ مِنْ أَعْلَى جَبَلِ «أَبِي قُبَيْسٍ» يَقُولُ:

هُبُّـــوا لِصَاحِبِكُمْ مِثْـــلَى صَحَابَتِهِ

سِـــيرُوا إِلَيْهِ وَكُونُوا مَعْشَرًا كُرُمَا

بَعْدَ الطَّوَافِ وَبَعْدَ السَّعْيِ فِي مَهَلٍ

وَأَنْ يَحُوزَهُمْ مِـــنْ «مَكَّةَ» الْحَرَمَا

شَـــاهَتْ وُجُوهُهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ ثُكُلٍ

لَا يُنْصَرُونَ إِذَا مَـــا حَارَبُوا صَنَمَا

فَارْتَجَّتْ «مَكَّةُ» كُلُّهَا لِدَوِيِّ هَذَا الصَّوْتِ، وَتَعَاقَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْهِمْ عَامَهُمْ هَذَا.

وَبَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلُ يَتْلُو هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الَّتِي سَمِعَهَا بِمَكَّةَ، إِذَا بِصَوْتٍ أَشَدَّ وَأَقْوَى قَدْ سَمِعَهُ جَمِيعُ النَّاسِ يَنْطَلِقُ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ يَقُولُ:

شَاهَتْ وُجُوهُ رِجَالٍ حَالَفُوا صَنَمَا

وَخَابَ سَـــعْيُهُمْ مَا أَقْصَرَ الْهِمَمَا

وَقَـــدْ أَتَاهُـــمْ رَسُـــولُ اللهِ فِي نَفَرٍ

وَكُلُّهُـــمْ مُحْرِمٌ لَا يَسْـــفِكُونَ دَمَا

وَعِنْدَمَا سَـــمِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، أَدْرَكَ أَنَّ قُرَيْشًا الْجَاحِدَةَ الْجَامِحَةَ قَدِ اسْتَبَدَّتْ بِهَا عَنْجَهِيَّتُهَا وَجَاهِلِيَّتُهَا، وَأَنَّهَا قَدْ تَتَوَرَّطُ مَعَهُ وَمَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالٍ، فَرَأَى أَنْ يَسْتَشِيرَ أَصْحَابَهُ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَأَنْبَأَهُمْ بِمَا سَمِعَ، وَكَانَ أَوَّلُ الْمُتَكَلِّمِينَ «أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ خَيْرًا، وَأَشَـــارَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالصُّمُودِ وَمُتَابَعَةِ الْمَسِيرِ، وَلْيَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ.

ثُمَّ تَتَابَعَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِـــمْ، وَكُلُّهُمْ مُؤَيِّدٌ لِمَوْقِفِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رَغْمَ مَا فِي هَذَا الرَّأْيِ مِنْ مُخَاطَرَةٍ وَمُغَامَرَةٍ.

عِنْدَ ذَلِكَ وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَـــهُ أَمَامَ مُوَاجَهَةٍ مُحَتَّمَةٍ مَعَ قُرَيْشٍ إِنْ هِيَ أَصَرَّتْ وَكَابَرَتْ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهُ لَيْسُوا مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَخْشَى التَّهْدِيدَ أَوِ الْوَعِيدَ.

مِنْ أَجْلِ هَذَا، أَرْسَـــلَ ﷺ جَاسُوسًا آخَرَ يَسْتَشْرِفُ لَهُ تَحَرُّكَاتِ قُرَيْشٍ، وَيَطَّلِعُ لَهُ عَلَى أَمَاكِنِ مُعَسْـــكَرَاتِهَا، وَعَدَدِ قُوَّاتِهَا، فَعَلِمَ أَنَّ مُقَدِّمَةَ جَيْشِ

الْمُشْرِكِينَ تَكْمُنُ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى مَكَّةَ، وَعَلَى قِيَادَتِهَا «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» فِي مِئَتَيْ فَارِسٍ، فَاخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ طَرِيقًا آخَرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَاشَى الِاصْطِدَامَ بِقُرَيْشٍ، لَا خَوْفًا وَلَا رَهْبَةً، وَلَكِنِ ابْتِعَادًا عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِرَاقَتِهَا.

وَكَانَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَهُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَعْرًا شَدِيدَ الْوُعُورَةِ، مُرْهِقًا صُعُودًا وَهُبُوطًا، غَيْرَ مَطْرُوقٍ مِنْ قَبْلُ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ تَحَمَّلَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَاسْتَهَانُوا مَشَقَّتَهُ وَاسْتَعَانُوا اللهَ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَمَا زَالُوا فِي سَعْيِهِمْ حَتَّى يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَانْتَهَى الطَّرِيقُ بِهِمْ إِلَى مَسْلَكٍ سَهْلٍ بَسِيطٍ.

لَقَدْ كَانَتْ حَرَكَةُ النَّبِيِّ ﷺ هَذِهِ نَوْعًا مِنَ الْمُنَاوَرَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، فَمَا شَعَرَ «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» إِلَّا وَجَيْشُ الْمُسْلِمِينَ قَدِ الْتَفَّ بِهِ، فَأَسْرَعَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَمُنَبِّهًا لَهَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَزَالُ عَلَى تَصْمِيمِهِ وَعَزْمِهِ فِي زِيَارَةِ الْبَيْتِ، وَأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، وَالطَّوَافِ.

وَهُنَا، جَرَتْ حَادِثَةٌ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ أَثَرٍ مُبَاشِرٍ فِي إِسْلَامِ «خَالِدٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.

لَقَدْ أَدْرَكَتِ الصَّلَاةُ الْمُسْلِمِينَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ، صَفٌّ يُصَلِّي مَعَهُ، وَصَفٌّ آخَرُ يَحْرُسُ، فَوَقَفَ «خَالِدٌ» يَرْقُبُهُمْ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَكُلُّهُ دَهْشَةٌ وَتَعَجُّبٌ، وَبَدَأَتْ نَفْسُهُ تَتَحَرَّكُ بِشَتَّى الِانْفِعَالَاتِ وَالتَّفَاعُلَاتِ، كَمَا أَدْرَكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مُؤَيَّدُونَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، مِنْ لَدُنْ قُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ لَا تُقْهَرُ،

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ مِفْتَاحَ قَلْبِ «خَالِدٍ» إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

وَلَمَّا انْتَهَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضَتِهِمْ، وَقَدْ غَادَرَهُمْ «خَالِدٌ» إِلَى مَكَّةَ دُونَ أَنْ يُنَاجِزَهُمْ، تَابَعُوا سَـــيْرَهُمْ حَتَّى بَلَغُوا «الْحُدَيْبِيَةَ»، وَهِيَ بِئْرٌ تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ تِسْعَةَ أَمْيَالٍ.

وَهُنَا تَوَقَّفَتْ نَاقَةُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ عَنِ الْمَسِـــيرِ، وَحَاوَلَ بَعْضُ النَّاسِ إِثَارَتَهَا وَدَفْعَهَا فَلَمْ تُذْعِنْ، فَأَرْجَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ قَائِلِينَ:

- لَقَدْ خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ (أَيْ حَرَنَتْ).

فَأَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:

- مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ (أَيْ مَنَعَهَا)، وَكَانَتْ هَذِهِ إِشَارَةً مِنْهُ ﷺ إِلَى الْفِيلِ الَّذِي كَانَ يَسُوقُهُ «أَبْرَهَةُ» لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ، وَقَدْ أَحْجَمَ عَنْ إِيذَاءِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، حَتَّى لَا تُسْـــفَكَ الدِّمَاءُ وَتُزْهَقَ الْأَنْفُسُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً فِيهَا تَعْظِيمٌ لِحُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا.

ثُمَّ زَجَرَ النَّاقَةَ فَقَامَتْ، فَنَزَلَ بِهَا عِنْدَ بِئْرِ «الْحُدَيْبِيَةِ»، وَقَالَ لِلنَّاسِ:

- انْزِلُوا.

وَأَقَامَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بِانْتِظَارِ مَا سَيُسْـــفِرُ عَنْهُ مَوْقِفُ قُرَيْشٍ الْمُتَعَنِّتَةِ، مُحَـــاوِلًا ﷺ إِظْهَارَ الْقُوَّةِ وَالثَّبَاتِ لِتَنْفِيذِ حُكْـــمِ اللهِ وَأَمْرِهِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى

رَغْبَتِهِ الْأَكِيدَةِ بِالْإِبْقَاءِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَبَذْلِ النُّصْحِ.

وَوَجَدَ بَيْنَ رِجَالَاتِ قُرَيْشٍ مَنْ يَرَى تَرْكَ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلونَ مَكَّةَ زَائِرِينَ، لَكِنَّ جُهَّالَهَا كَانُوا يَأْبَوْنَ ذَلِكَ وَيَرْفُضُونَهُ بِشِدَّةٍ، لِهَذَا، اسْتَأْذَنَهُمْ «عُرْوَةُ بْنُ مَسْـــعُودٍ» الثَّقَفِيُّ ـ وَكَانَ لَا يَزَالُ عَلَى شِرْكِهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُكَلِّمَهُ وَيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ، لَعَلَّهُ يُقْنِعُهُ بِالْعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَى، فَأَذِنُوا لَهُ فِي ذَلِكَ.

فَجَاءَ «عُرْوَةُ» إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْـــلِمِينَ مُفَاوِضًا، فَاجْتَمَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِلَى رَهْطٍ (مَجْمُوعَـــةٍ) مِنَ الصَّحَابَةِ وَحَدَّثَهُمْ وَحَاوَلَ إِقْنَاعَهُمْ، لَكِنْ دُونَ جَدْوَى، وَعَادَ «عُرْوَةُ» إِلَى مَكَّةَ، كَمَا جَاءَ، خَالِيَ الْوِفَاضِ.

لَكِنَّ هَذِهِ الزِّيَارَةَ تَرَكَتْ فِي نَفْـــسِ «عُرْوَةَ» أَثَرًا طَيِّبًا، وَيَبْدُو أَنَّهَا كَانَتْ تَوْطِئَةً لِإِسْلَامِهِ وَدُخُولِهِ فِي دِينِ اللهِ، فَقَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ ابْتَعَثُوهُ:

ـ أَيْ قَـــوْمِ، فَوَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ (أَيْ زُرْتُهُمْ)، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ كَمَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا.

ثُمَّ اشْتَدَّ عَلَى قَوْمِهِ مُحَاوِلًا إِقْنَاعَهُمْ حَتَّى يُخَلُّوا بَيْنَ «مُحَمَّدٍ» وَبَيْنَ دُخُولِ مَكَّةَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ، فَتَرَكَهُمْ وَانْصَرَفَ عَنْهُمْ.

كَمَا تَخَـــلَّى الْكَثِيرُونَ مِمَّنْ كَانُوا يُحَالِفُونَ قُرَيْشًـــا عَنْ مُسَـــاعَدَتِهَا، وَالِاسْتِمْرَارِ فِي صَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

بَعْدَ ذَلِكَ...

حَاوَلَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَتَحَرَّشَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَأَرْسَلَتْ فِرْقَةً مِنْ فُرْسَانِهَا بِقِيَادَةِ «مِكْرَزِ بْنِ حَفْصٍ»، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُوَفَّقْ فِي غَايَتِهِ وَلَمْ يُحَقِّقْ غَرَضًا.

وَلَمَّا أَدْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ إِصْرَارَ قُرَيْشٍ وَعِنَادَهَا، انْتَدَبَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سَفِيرًا إِلَيْهَا، لِمَكَانَتِهِ عِنْدَهَا، لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقْنِعَ الْمُكَابِرِينَ مِنْ جُهَّالِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَدَى حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ عَنْوَةً، أَوْ أَنْ يُثِيرَ مَعَ قُرَيْشٍ حَرْبًا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، أَوْ يَسْفِكَ دَمًا.

وَذَهَبَ «عُثْمَانُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُزَوَّدًا بِتَعْلِيمَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَدَعَوَاتِهِ، لَكِنَّ غَيْبَتَهُ طَالَتْ وَاسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَخَشِيَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ «عُثْمَانَ» مَكْرُوهٌ، كَمَا شَاعَتْ بَيْنَ النَّاسِ شَائِعَةٌ تَقُولُ بِأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ، مِمَّا أَغْضَبَ الْمُسْلِمِينَ وَزَادَ فِي حَنَقِهِمْ عَلَى قُرَيْشٍ.

وَبَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابُهُ عَلَى الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ بَيْعَةَ الشَّجَرَةِ (وَتُسَمَّى بِذَلِكَ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ تَحْتَ شَجَرَةٍ) كَمَا تُسَمَّى «بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ»؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَنَ عَنْ رِضَا اللهِ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهَا.

وَبَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوْجِ غَلَيَانِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ، إِذْ بِـ «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَعُودُ إِلَيْهِمْ سَلِيمًا مُعَافًى لَمْ يَمْسَسْهُ سُوءٌ.

بَعْدَ عَوْدَةِ «عُثْمَانَ» إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ، جَاءَهُمْ «سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو» مُوفَدًا مِنْ قِبَلِ قُرَيْشٍ لِلْمُفَاوَضَةِ، وَوَضْعِ شُرُوطَ الصُّلْحِ، وَتَوْقِيعِ الْمُعَاهَدَةِ.

فَاجْتَمَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِحُضُورِ نَفَرٍ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَجَرَتْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ مُحَادَثَاتٍ كَانَ ظَاهِرُهَا تَنَازُلَاتٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ظَنَّهَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ضَعْفًا وَذِلَّةً، لَكِنَّ حَقِيقَتَهَا وَجَوْهَرَهَا: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

لَقَدِ اتَّفَقَ الْفَرِيقَانِ عَلَى أَنْ يَعُودَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَامَهُمْ هَذَا، ثُمَّ يَأْتُوا إِلَى مَكَّةَ فِي عَامٍ قَابِلٍ لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، فَيَمْكُثُوا فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تُخْلِيهَا لَهُمْ قُرَيْشٌ.

وَأَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ أَوْزَارَهَا مُدَّةَ عَشَرَةَ أَعْوَامٍ.

وَأَنَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَاجِئًا إِلَى قُرَيْشٍ لَا تَرُدُّهُ إِلَى «مُحَمَّدٍ»، وَمَنْ جَاءَ هَارِبًا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى «مُحَمَّدٍ» رَدَّهُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ شَاءَ مِنَ الْقَبَائِلِ أَنْ يَدْخُلَ فِي حِلْفِ قُرَيْشٍ فَلْيَدْخُلْ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي حِلْفِ «مُحَمَّدٍ» فَلْيَدْخُلْ.

وَوَقَّعَ الطَّرَفَانِ وَثِيقَةَ الصُّلْحِ الَّذِي سُمِّيَ بِصُلْحِ «الْحُدَيْبِيَةِ»، وَالَّذِي كَانَ إِيذَانًا بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ، وَالنَّصْرِ الْعَظِيمِ، «فَتْحِ مَكَّةَ»، وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

ثُمَّ عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَقَّعَ النَّبِيُّ ﷺ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَقَدْ أَقْنَعَ أَصْحَابَهُ بِصَوَابِ رَأْيِهِ وَبُعْدِ نَظَرِهِ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ.

١١

غَزْوَةُ خَيْبَرَ

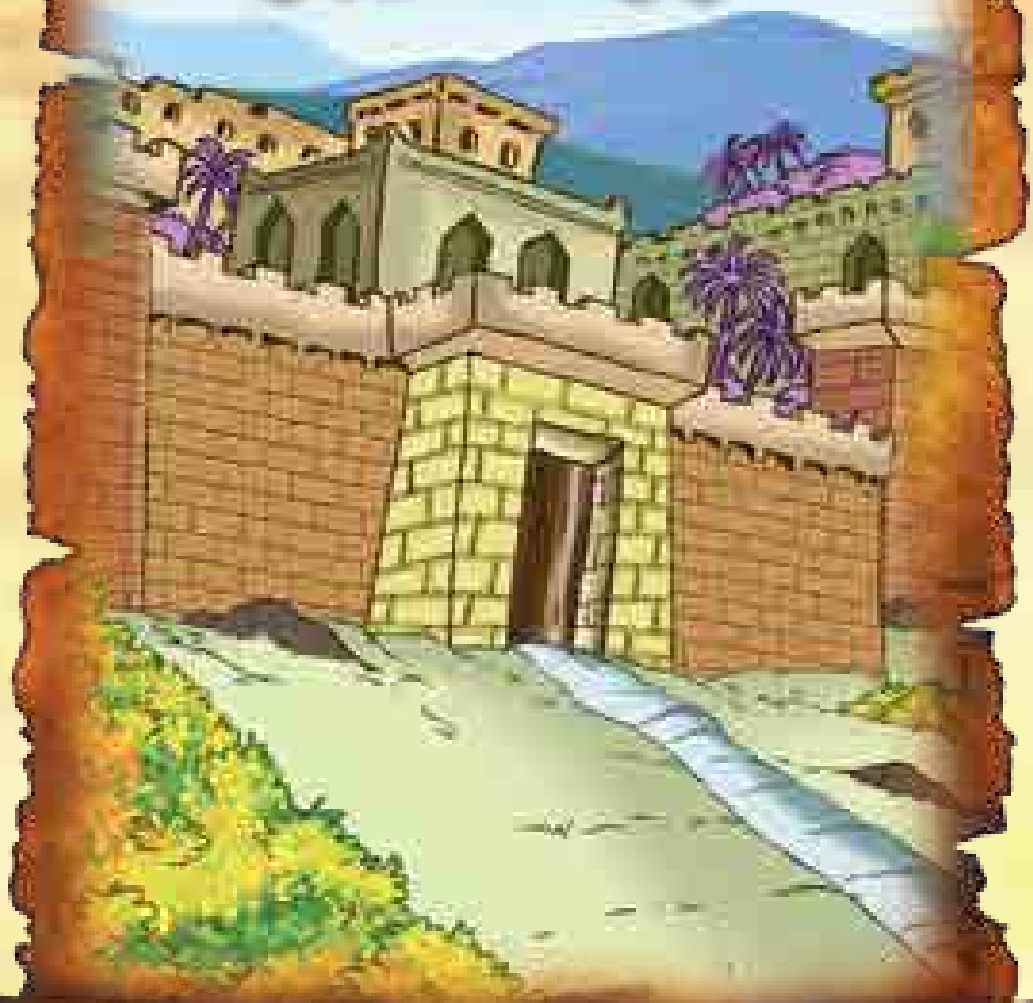

غَزْوَةُ خَيْبَرَ

تَوْطِئَةٌ:

لَقَدْ حَاوَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُطَبِّقَ قَوَاعِدَ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَبَادِئَهُ عَلَى الْعَلَاقَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِ بِمُخْتَلِفِ قَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الْيَهُودَ بِمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنْ غَدْرٍ وَمَكْرٍ وَنِفَاقٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا لِذَلِكَ.

فَلَمْ يَجِدْ ﷺ بُدًّا مِنْ إِجْلَائِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ وَقِتَالِهِمْ، فَلَجَأَ قِسْمٌ مِنْهُمْ إِلَى «خَيْبَرَ» وَهُنَاكَ لَمْ يَسْتَكِينُوا بَلْ أَخَذُوا فِي مُنَاوَأَتِهِ وَمُنَاوَأَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهِم، كَمَا أَخَذُوا يُغَذُّونَ كُلَّ حَرْبٍ شَعْوَاءَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

لِهَذَا اضْطُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَشُنَّ عَلَيْهِمْ حَرْبَ إِجْلَاءٍ عَنْ «خَيْبَرَ» الَّتِي اتَّخَذُوا مِنْهَا قَاعِدَةً جَدِيدَةً لِنَفْثِ سُمُومِهِمْ وَإِذْكَاءِ رُوحِ الْحِقْدِ وَالتَّشَفِّي عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

إِنَّ الْيَهُودَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ، وَلَا عَهْدَ لَهُمْ، وَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ وَالْغَدْرِ، وَاسْتَمْرَؤُوا الْحِيلَةَ وَالْخِدَاعَ، وَاسْتَطَابُوا الْكَذِبَ وَالْمُخَاتَلَةَ، لَا يُؤْمَنُ جَانِبُهُمْ وَلَا يُطْمَأَنُّ إِلَى مُوَادَعَتِهِمْ.

هَكَذَا شَأْنُهُمْ أَبَدًا...

فَلْيَتَعَلَّمِ الَّذِينَ يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمُ الْيَوْمَ فَيَقُولُونَ قَوْلًا زُورًا بِأَنَّ الصُّهْيُونِيَّةَ غَيْرُ الْيَهُودِيَّةِ، مُحَاوِلِينَ أَنْ يُضَلِّلُوا النَّاسَ بَعْدَ أَنْ جَازَتْ عَلَيْهِمُ الْحِيلَةُ...

خَيْبَرُ

تَقَعُ «خَيْبَرُ» عَلَى بُعْدِ ١٦٠ كم مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ، وَلَقَدْ كَانَتْ مَدِينَةً كَبِيرَةً ذَاتَ حُصُونٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَزَارِعَ وَنَخْلٍ؛ أَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّ عَدَدَ سُكَّانِهَا قَلِيلٌ، تَهَدَّمَتْ أَكْثَرُ حُصُونِهَا، وَتَهَاوَتْ أَكْثَرُ قِلَاعِهَا، وَجَفَّ كَثِيرٌ مِنَ الْيَنَابِيعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا.

بَعْدَ أَنْ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ «الْحُدَيْبِيَةِ» أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ «ذَا الْحِجَّةِ» وَبَعْضَ «الْمُحَرَّمِ» فَلَمَّا بَقِيَ أَقَلُّهُ خَرَجَ إِلَى «خَيْبَرَ» وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ لِلْهِجْرَةِ.

نَادَى فِي النَّاسِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجِهَادِ بَعْدَ أَنِ اسْتَنْفَرَ إِخْوَانَهُ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ إِلَى «الْحُدَيْبِيَةِ» فَتَمَّ لَهُ جَيْشٌ قِوَامُهُ (١٢٠٠) رَاجِلٍ وَ (٢٠٠) فَارِسٍ. وَخَرَجَتْ مَعَهُ زَوْجُهُ «أُمُّ سَلَمَةَ» أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ.

إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى «خَيْبَرَ» شَاقٌّ طَوِيلٌ، تَكْتَنِفُهُ الْجِبَالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَادَ ﷺ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَى النَّاسِ ذَلِكَ، فَقَالَ لِـ «عَامِرِ بْنِ الْأَكْوَعِ»:

ـ انْزِلْ فَحَدِّثْنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ، (أَيْ مِنْ أَرَاجِيزِكَ وَأَشْعَارِكَ) وَحَرِّكْ بِنَا الرِّكَابَ.

فَقَالَ «عَامِرٌ»:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ تَرَكْتُ قَوْلَ الشِّعْرِ.

فَقَالَ لَهُ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ـ اسْمَعْ وَأَطِعْ...

فَنَزَلَ «عَامِرٌ» يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

وَاللهِ لَـــوْلَا اللهُ مَـــا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْـــنَا وَلَا صَـــلَّيْنَا

فَاغْفِرْ نِـــدَاءً لَكَ مَـــا أَبْقَيْنَا

وَأَلْقِيَـــنْ سَـــكِينَةً عَلَيْـــنَا

وَثَبِّـــتِ الْأَقْـــدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـــا

إِنَّـــا إِذَا صِيـــحَ بِنَـــا أَتَيْنَا

وَبِالصِّيَـــاحِ عَوَّلُـــوا عَلَيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا

إِنَّ الَّذِيـــنَ قَدْ بَغَـــوْا عَلَيْنَا

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـــــةً أَبَيْنَـــا

وَعِنْدَ إِنْشَادِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ يَرْحَمُكَ رَبُّكَ.

وَكَأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ بَشِيرَ شَـــهَادَةٍ لِـ «عَامِرٍ» إِذْ قَضَى فِي مَعْرَكَةِ «خَيْبَرَ» شَهِيدًا.

اسْتَمَرَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرَتِهِ تَنْهَدُ بِهِ الْهِضَابُ وَتَحُطُّ بِهِ الْوِهَادُ، وَيَنْقَضِي النَّهَارُ وَيَتْبَعُهُ اللَّيْلُ حَتَّى بَلَغُوا «خَيْبَرَ». وَكَانَ وُصُولُهُمْ إِلَيْهَا لَيْلًا، فَنَامُوا دُونَهَا (أَيْ قَرِيبًا مِنْهَا) وَمَعَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ غَارَ عَلَيْهَا مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنْ دَعَا اللهَ رَبَّهُ قَائِلًا:

- «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّـــمَاوَاتِ وَمَـــا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ وَمَـــا أَقَلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّـــيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِاسْمِ اللهِ».

فِي تِلْكَ السَّاعَةِ كَانَ الْيَهُودُ قَدْ خَرَجُوا إِلَى مَزَارِعِهِمْ بِمَسَاحِيهِمْ، وَمَكَاتِلِهِمْ وَعَلَيْهِمْ سِـــلَاحُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ سَمِعُوا بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِمْ، وَمَا صَدَّقُوا ذَلِكَ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ مِنَ السِّلَاحِ تَحَسُّبًا لِكُلِّ طَارِئٍ.

فَمَا إِنْ رَأَوُا الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَالُوا ـ وَالْمُفَاجَأَةُ تَعْقِدُ أَلْسِنَتَهُمْ ـ :

ـ «مُحَمَّدٌ» وَاللهِ، وَالْخَمِيسُ (أَيِ الْجَيْشُ).

ثُمَّ أَخَذُوا يَتَبَادَرُونَ إِلَى حُصُونِهِمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:

ـ اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ «خَيْبَرُ»، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ.

وَرَتَّبَ النَّبِيُّ ﷺ جُنْدَهُ، وَوَزَّعَ الْمَسْئُولِيَّاتِ، وَدَفَعَ رَايَتَهُ (الْعُقَابَ) إِلَى «الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ»، وَرَايَةً أُخْرَى إِلَى «سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَكَانَ مَرْكَزُ مُعَسْكَرِهِ ﷺ فِي وَادٍ يُقَالُ لَهُ «الرَّجِيعُ» حَاجِزًا بَيْنَ الْيَهُودِ وَبَيْنَ قَبِيلَةِ «غَطَفَانَ» لِئَلَّا يَمُدُّوهُمْ لِأَنَّهُمْ حُلَفَاؤُهُمْ.

وَيُرْوَى أَنَّ «غَطَفَانَ» عِنْدَمَا سَمِعُوا بِحِصَارِ «خَيْبَرَ» خَرَجُوا لِنَجْدَةِ الْيَهُودِ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ مَعَ ذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ سَمِعُوا خَلْفَهُمْ حِسًّا وَجَلَبَةً، فَظَنُّوا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَحَاطُوا بِهِمْ، وَدَبَّ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ فِي صُفُوفِهِمْ فَتَنَادَوْا نَاكِصِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا سَمِعُوا نِدَاءَ النَّبِيِّ ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ «خَيْبَرُ»، رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ (أَيِ ارْفُقُوا بِهَا)، وَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ.

كَانَتْ «خَيْبَرُ» فِي ذَلِكَ الْحِينِ حُصُونًا مُتَعَدِّدَةً، فَجَمَعَ الْيَهُودُ أَمْوَالَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ فِي أَحَدِهَا، وَجَمَعُوا الْمُقَاتِلَةَ ـ أَيْ فُرْسَانَهُمْ وَشُجْعَانَهُمْ ـ فِي الْمُتَقَدِّمِ مِنْهَا وَهُوَ حِصْنُ «النَّطَاةِ».

فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُوَّاتِهِ إِلَى هَذَا الْحِصْنِ وَنَزَلَ بِهِمْ عِنْدَهُ، فَجَاءَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ وَهُوَ «الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ» ـ خَبِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْعَسْكَرِيُّ ـ يَقُولُ لَهُ:

ـ يَا رَسُـــولَ اللهِ، إِنَّكَ نَزَلْتَ مَنْزِلَكَ هَذَا، فَـــإِنْ كَانَ عَنْ أَمْرٍ أُمِرْتَ بِهِ فَلَا نَتَكَلَّمُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الرَّأْيَ تَكَلَّمْنَا.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ بَلْ هُوَ الرَّأْيُ.

فَقَالَ «الْحُبَابُ»:

ـ يَا رَسُـــولَ اللهِ إِنَّ أَهْلَ «النَّطَاةِ» لِي بِهِمْ مَعْرِفَةٌ، لَيْـــسَ قَوْمٌ أَبْعَدَ مِنْهُمْ مَدًى، وَلَا أَعْدَلَ رَمْيَةً، وَهُمْ مُرْتَفِعُونَ عَلَيْنَا، وَهُوَ أَسْرَعُ لِانْحِطَاطِ نَبْلِهِمْ. تَحَوَّلْ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ إِذَا أَمْسَيْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَحَوَّلْنَا.

ثُمَّ نَادَى أَحَدَ أَصْحَابِهِ «مُحَمَّدَ بْنَ مَسْـــلَمَةَ»، الْفِدَائِيَّ الْعَظِيمَ، وَالْبَطَلَ الْمُغَامِرَ، فَقَالَ لَهُ:

ـ انْظُرْ لَنَا مَنْزِلًا بَعِيدًا...

فَقَامَ «مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ» بِالْمُهِمَّةِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَعِنْدَمَا جَنَّ الظَّلَامُ، تَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُسْـــلِمِينَ إِلَى مَكَانٍ «إِسْـــتِرَاتِيجِيٍّ» أَمِينٍ وَقَعَ اخْتِيَارُ «ابْنِ مَسْلَمَةَ» عَلَيْهِ.

أَقَامُ الْمُسْلِمُونَ مُحَاصِرِينَ لِأَهْلِ «خَيْبَرَ»، وَطَالَتْ أَيَّامُ إِقَامَتِهِمْ، فَابْتَنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَسْجِدًا يُؤَدِّي فِيهِ الصَّلَاةَ مَعَ إِخْوَانِهِ.

وَأَرَادَ ﷺ أَنْ يُحَرِّكَ الْيَهُودَ لِلْقِتَـــالِ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ، فَقَطَعَ مِنْهَا (٤٠٠) نَخْلَةٍ.

وَهُنَا... بَدَأَ الرَّمْيُ بِالسِّـــهَامِ وَالنِّبَالِ بَيْنَ الطَّرَفَيْـــنِ، وَانْدَفَعَتْ كَتَائِبُ الْمُسْـــلِمِينَ إِلَى أَبْوَابِ «النَّطَاةِ» لِتَخْتَرِقَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْجَحْ فِي مُحَاوَلَاتِهَا الْمُتَكَرِّرَةِ. ثُمَّ خَرَجَتْ بَعْضُ كَتَائِبِ الْيَهُودِ يَتَقَدَّمُهَا فَارِسٌ مِنْ فُرْسَـــانِهِمُ اسْمُهُ «نَاشِرٌ»، فَأَغَارَ عَلَى جُمُوعِ الْأَنْصَارِ حَتَّى كَشَفَهُمْ، كَمَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاشْـــتَدَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْسَى يَوْمَهُ مَهْمُومًا، وَاسْتُشْهِدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ «مَحْمُودُ بْنُ مَسْـــلَمَةَ» أَخُو «مُحَمَّدِ بْنِ مَسْـــلَمَةَ» إِذْ أَلْقَى عَلَيْهِ فَارِسُ الْيَهُودِ «مَرْحَبٌ» حَجَرًا ثَقِيلًا فَقَتَلَهُ.

فَجَاءَ أَخُوهُ «مُحَمَّدٌ» إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَائِلًا:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوا أَخِي...

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا تُبْتَلُونَ بِهِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا وَرَبُّهُمْ، وَنَوَاصِينَا وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُهُمْ أَنْتَ، ثُمَّ الْزَمُوا الْأَرْضَ جُلُوسًا، فَإِذَا غَشَوْكُمْ فَانْهَضُوا وَكَبِّرُوا.

وَمَكَثَ ﷺ أَيَّامًا يُقَاتِلُ أَهْلَ «النَّطَاةِ»، يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ لِلْقِتَالِ وَيُخَلِّفُ عَلَى الْمُعَسْكَرِ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ جُرِحَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ لِيُدَاوَى.

وَكَانَ يُنَاوِبُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فِي حِرَاسَةِ اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ السَّادِسَةُ، اسْـــتَعْمَلَ «عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَطَـــافَ «عُمَرُ» بِأَصْحَابِهِ حَوْلَ الْمُعَسْكَرِ، ثُمَّ فَرَّقَهُمْ حَتَّى أَوْغَلُوا فِي الْبُعْدِ، فَجَاءَهُ أَحَدُهُمْ وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَهُودِيٍّ مِنْ أَهْلِ «خَيْبَرَ»، فَأَمَرَ «عُمَرُ» بِضَرْبِ عُنُقِهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:

ـ اذْهَبْ بِي إِلَى نَبِيِّكُمْ حَتَّى أُكَلِّمَهُ.

فَأَمْسَكَ «عُمَرُ» عَنْهُ، وَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَدْخَلَهُ عَلَيْهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْيَهُودِيِّ:

ـ مَا وَرَاءَكَ؟

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:

ـ تُؤَمِّنِّي يَا أَبَا الْقَاسِمِ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ نَعَمْ.

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:

ـ خَرَجْتُ مِنْ حِصْنِ «النَّطَاةِ» مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ يَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْحِصْنِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ؟

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:

ـ إِلَى «الشِّقِّ» ـ حِصْنٍ آخَرَ ـ يَجْعَلُونَ فِيهِ ذَرَارِيَّهُمْ وَيَتَهَيَّئُونَ لِلْقِتَالِ. كَمَا أَخْبَرَهُ أَيْضًا أَنَّ فِي حِصْنِ «الصَّعْبِ» بَيْتًا تَحْتَ الْأَرْضِ فِيهِ مَنْجَنِيقٌ وَدَبَّابَاتٌ وَدُرُوعٌ وَسُيُوفٌ، فَإِذَا دَخَلْتَ الْحِصْنَ، وَأَنْتَ تَدْخُلُهُ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ أَوْقَفْتُكَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرِي، وَهُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ..

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ وَمَا هُوَ؟

قَالَ:

ـ تُخْرِجُ الْمَنْجَنِيقَ، وَتَنْصِبُهُ عَلَى «الشِّقِّ» وَيَدْخُلُ الرِّجَالُ تَحْتَ الدَّبَّابَاتِ فَيَحْفِرُونَ الْحِصْنَ، فَتَفْتَحُهُ مِنْ يَوْمِكَ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِحُصُونِ «الْكَتِيبَةِ».

وَقَالَ:

ـ يَا أَبَا الْقَاسِمِ احْقِنْ دَمِي.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ أَنْتَ آمِنٌ.

فَقَالَ:

ـ وَلِي زَوْجَةٌ، فَهَبْهَا لِي.

فَقَالَ ﷺ:

ـ هِيَ لَكَ.

ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِاحْتِجَازِ الْيَهُودِيِّ لِلتَّحَقُّقِ مِنْ أَقْوَالِهِ، ثُمَّ جَمَعَ أَصْحَابَهُ فِي مَجْلِسِ حَرْبِيٍّ وَقَالَ:

ـ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا لِرَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَا يُوَلِّي الدُّبُرَ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي تَمَنَّى كُلُّ صَحَابِيٍّ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلَ الَّذِي عَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَقَدْ تَشَوَّفَ وَتَطَلَّعَ الْكَثِيرُونَ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَهَذِهِ الْحُظْوَةِ.

ثُمَّ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِـ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءَهُ الْأَبْيَضَ، وَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ اكْفِهِ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ. يَا «عَلِيُّ» ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ إِنَّ مَعَكَ مَنْ لَا يَخْذُلُكَ، هَذَا جِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِكَ بِيَدِهِ سَيْفٌ لَوْ ضَرَبَ بِهِ الْجِبَالَ لَقَطَعَهَا فَأَبْشِرْ بِالرِّضْوَانِ وَالْجَنَّةِ، يَا «عَلِيُّ» إِنَّكَ سَيِّدُ الْعَرَبِ وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

ثُمَّ أَلْبَسَهُ دِرْعَهُ الْحَدِيدَ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ سَيْفَهُ «ذَا الْفَقَارِ»، وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَوَجَّهَهُ إِلَى الْحِصْنِ.

حَمَلَ «عَلِيٌّ» الرَّايَةَ وَطَارَ بِهَا مُسْرِعًا حَتَّى رَكَّزَهَا عِنْدَ قَاعِدَةِ الْحِصْنِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ يَهُودِيٌّ مِنْ رَأْسِ الْحِصْنِ فَقَالَ لَهُ:

- مَنْ أَنْتَ؟

فَقَالَ:

- «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».

كَانَ هَذَا الْيَهُودِيُّ فَارِسَهُمْ «مَرْحَبًا».

ثُمَّ أَمَرَ «مَرْحَبٌ» أَخَاهُ «الْحَارِثَ» أَنْ يَخْـــرُجَ إِلَى «عَلِيٍّ»، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِي كَوْكَبَةٍ مِنَ الْفُرْسَـــانِ، فَصَدَمَ «عَلِيًّا» وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى كَشَفَهُمْ، ثُمَّ كَرَّ عَلَيْهِ «عَلِيٌّ» فَتَضَارَبَـــا وَتَقَاتَلَا حَتَّى جَنْدَلَهُ «عَلِيٌّ»، فَانْهَـــزَمَ الْيَهُودُ إِلَى دَاخِلِ الْحِصْنِ.

وَلَمَّا عَلِمَ «مَرْحَبٌ» بِمَقْتَلِ أَخِيهِ ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ، وَخَرَجَ مِنَ الْحِصْنِ سَرِيعًا وَقَدْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ، وَتَقَلَّدَ بِسَيْفَيْنِ، وَاعْتَمَّ بِعِمَامَتَيْنِ وَلَبِسَ فَوْقَهُمَا مِغْفَرًا، كَمَا حَمَلَ رُمْحًا لَهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ، وَكَانَ فِي خُرُوجِهِ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَـتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَـرَّبُ

إِذَا الْحُـرُوبُ أَقْبَـلَتْ تَلَهَّـبُ

فَرَدَّ عَلَيْهِ «عَلِيٌّ» بِصَوْتٍ مُدَوٍّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي «حَيْدَرَهْ» كَلَـيْثِ غَابَاتٍ كَـرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

ثُمَّ حَمَلَ «مَرْحَبٌ» عَلَى «عَلِيٍّ» وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً شَـــدِيدَةً، فَوَقَعَ تُرْسُهُ مِنْ يَدِهِ، فَتَنَاوَلَ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَابًا كَانَ مُلْقًى عِنْدَ الْحِصْنِ فَتَتَرَّسَ بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ «مَرْحَبًا» ضَرْبَةً قَوِيَّةً شَقَّتْ رَأْسَهُ نِصْفَيْنِ، وَغَرَزَ السَّيْفَ فِي الْأَضْرَاسِ.

وَلَمْ يَزَلِ الْقِتَالُ بَيْنَ الْمُسْـــلِمِينَ وَالْيَهُودِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَفْتَحُونَ حُصُونَ خَيْبَرَ حِصْنًا بَعْدَ حِصْنٍ حَتَّى أَتَمُّوهَا. وَقُتِلَ مِنَ الْيَهُودِ ثَلَاثَةٌ وَتِسْـــعُونَ، وَاسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا.

كَمَا اسْتَوْلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى كَنْزِ «سَلَّامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ»، وَهُوَ مَالُهُ الَّذِي جُعِلَ فِي جِلْدِ جَمَلٍ لِكَثْرَتِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ وَزَّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْغَنَائِمَ وَالْأَسْلَابَ عَلَى النَّاسِ، جَاءَهُ «دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ» فَقَالَ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي جَارِيَةً.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً.

فَأَخَذَ «صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ»، وَكَانَتِ امْرَأَةً حَسْـــنَاءَ، فَتَنَافَسَ النَّاسُ فِيهَا، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ، فَاصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، رَضِيَ اللهِ تَعَالَى عَنْهَا.

وَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ؛ أَوْلَمَتْ لَهُ إِحْدَى الْيَهُودِيَّاتِ وَلِيمَةً، وَهِيَ زَوْجَةُ «سَلَّامِ بْنِ مُشْكِمٍ» «زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ» أَهْدَتْ إِلَيْهِ شَاةً مَسْـــمُومَةً تُرِيدُ أَنْ تَقْضِيَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا أَنَّهَا سَأَلَتْ عَنْ أَيِّ الْأَجْزَاءِ الَّتِي يُحِبُّهَا ﷺ مِنَ الشَّاةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى كَشَفَ غَدْرَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ وَحِيلَتَهَا، وَنَجَّى نَبِيَّـــهُ ﷺ، وَلَقِيَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ جَزَاءَ غَدْرِهَا قَتْلًا؛ لِأَنَّ أَحَدَ

أَصْحَابِهِ ﷺ وَاسْمُهُ «بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ» مَاتَ بِسَبَبِ مَا أَكَلَهُ مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ.

وَبَعْدَ فَتْحِ «خَيْبَرَ» وَانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَ وَفْدُ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكَانُوا سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ، بِفَتْحِ «خَيْبَرَ»، أَمْ بِقُدُومِ «جَعْفَرٍ»؟

وَكَذَلِكَ، صَادَفَ وُصُولُ «جَعْفَرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وُصُولَ «أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ» فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ.

كَانَتْ «قُرَيْشٌ» فِي ذَلِكَ الْحِينِ تَتَسَقَّطُ أَنْبَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ غَلَبُوهُمْ وَهَزَمُوهُمْ وَقَضَوْا عَلَيْهِمْ، فَكَانَ زُعَمَاؤُهَا فِي مَكَّةَ يَتَغَطْرَسُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيُغِيظُونَ «الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا وَصَلَهُمْ مِنْ أَخْبَارٍ كَذِبًا وَزُورًا عَنْ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ «الْعَبَّاسُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَتَحَمَّلُ كُلَّ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَيْقَنَ مِن انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهَزِيمَةِ الْيَهُودِ بِمَا وَصَلَهُ مِنْ أَخْبَارٍ وَأَنْبَاءٍ، تَزَيَّنَ وَخَرَجَ إِلَى أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ لِيُغِيظَهَا.

وَتَمَّ فَضْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا.

وَعَادَ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَعْدَ أَنْ أَجْلَى الْيَهُودَ عَنْ «خَيْبَرَ»، وَأَقَامَ عَلَيْهَا «الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمِيرًا. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا.

12

غَزْوَةُ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ

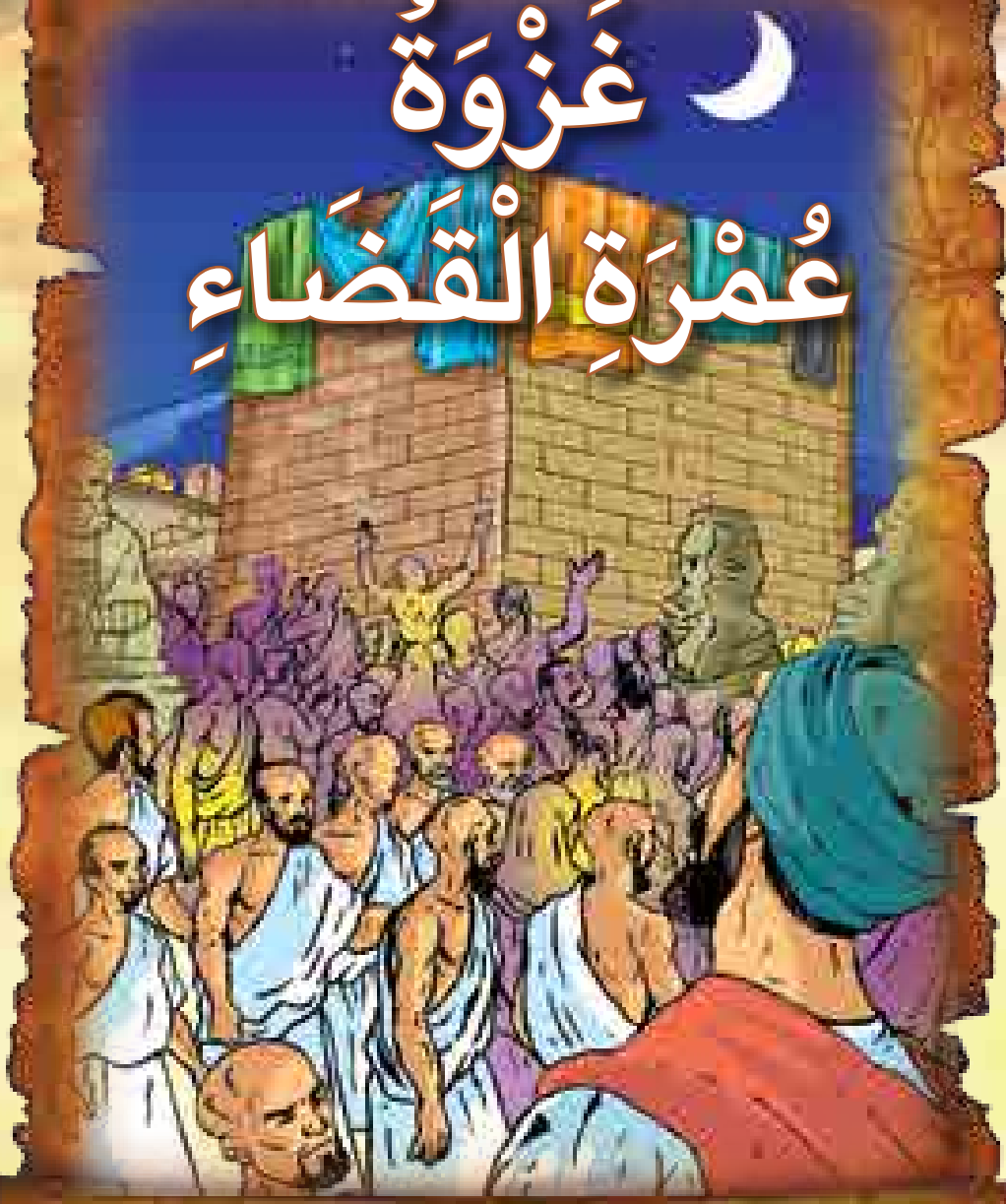

غَزْوَةُ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

تَوْطِئَةٌ:

إِنَّ الْمُطَّلِعَ عَلَى بُنُودِ وَمَوَادِّ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِي وَقَّعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ قُرَيْشٍ اطِّلَاعًا ظَاهِرِيًّا، أَوْ يُلْقِي عَلَيْهِ نَظْرَةً سَطْحِيَّةً سَرِيعَةً يَرَى فِيهِ إِجْحَافًا كَبِيرًا بِحَقِّ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ تَثُورُ ثَائِرَتُهُ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ سَيِّدُنَا «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا.

لَكِنَّ مُجْرَيَاتِ الْأَحْدَاثِ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَقَائِعَهَا أَثْبَتَتْ أَنَّ تِلْكَ الْبُنُودَ بِمُجْمَلِهَا كَانَتْ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ بَعِيدَ النَّظَرِ، عَمِيقَ الْفَهْمِ، مُقَدِّرًا كُلَّ التَّقْدِيرِ لِلنَّتَائِجِ الَّتِي سَتَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ الصُّلْحِ.

وَمَا «عُمْرَةُ الْقَضَاءِ» بِوَقَائِعِهَا الْمُتَعَـــدِّدَةِ إِلَّا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ النَّجَاحِ الَّذِي أَرَادَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَمَى إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ إِبْرَامِ تِلْكَ الْمُعَاهَدَةِ.

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقِيَادَةِ الْوَاعِيَةِ وَالسَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لَهَا تُؤَدِّي دَائِمًا إِلَى النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ، وَالْفَوْزِ الْمُبِينِ.

وَ«عُمْرَةُ الْقَضَاءِ» رَغْمَ أَنَّهَا لَمْ يَحْدُثْ فِيهَا قِتَالٌ وَالْتِحَامٌ وَمَعَارِكُ، فَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ غَزَوَاتِهِ ﷺ؛ إِذْ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ مَعَ صَحَابَتِهِ وَمَعَ الْمُسْـــلِمِينَ عَلَى أَتَمِّ أُهْبَةٍ خَوْفًا مِنَ الْغَدْرِ وَالْغِيلَةِ.

«عُمْرَةُ الْقَضَاءِ»

مَا إِنْ أَهَلَّ هِلَالُ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ حَتَّى دَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَـــهُ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ يَوْمَ «صُلْحِ الْحُدَيْبِيَـــةِ» لِيَعْتَمِرُوا ـ أَيْ يَزُورُوا مَكَّةَ مُحْرِمِينَ ـ قَضَاءً لِعُمْرَتِهِمُ الَّتِي صَدَّهُمْ عَنْهَا طُغْيَانُ قُرَيْشٍ وَصَلَفُهَا وَاسْتِبْدَادُهَا.

كَمَا أَمَرَ ﷺ أَنْ لَا يَتَخَلَّفَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، أَمَّا مَنْ شَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدِ «الْحُدَيْبِيَةَ» أَنْ يَعْتَمِرَ هَذَا الْعَامَ فَأَهْلًا بِهِ وَمَرْحَبًا.

وَبَلَغَتْ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ خَرَجُوا مَعَهُ ﷺ أَلْفَيْنِ سِوَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي أَثْنَاءِ مُدَّةِ غِيَابِهِ «كُلْثُومَ بْنَ الْحُصَيْنِ الْغِفَارِيَّ»، وَيُكَنَّى «أَبَا رَهْمٍ»، وَسَاقَ مَعَهُ سِتِّينَ بَدَنَةً، هَدْيًا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ، فَيَلْبَسُوا دُرُوعَهُمْ، وَيَحْمِلُوا سِلَاحَهُمْ وَرِمَاحَهُمْ وَسُيُوفَهُمْ.

كَمَا تَقَدَّمَ ﷺ الْجُمُوعَ عَلَى رَأْسِ مِئَةِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ الْأَشِدَّاءِ.

وَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ إِلَّا احْتِيَاطًا وَتَوَثُّقًا؛ خَوْفًا مِنْ غَدْرِ أَهْلِ مَكَّةَ.

سَارَ وَفْدُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ بِقِيَادَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَكُلُّهُمْ شَوْقٌ إِلَى مَكَّةَ الَّتِي أُكْرِهُوا عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَأُرْغِمُوا عَلَى هِجْرَتِهَا، يَحْدُوهُمْ أَمَلُ اللِّقَاءِ بِالْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ، وَبِمَرَابِعِ طُفُولَتِهِمْ وَمَرَاتِعِ صِبَاهُمْ وَشَبَابِهِمْ.

وَيَأْمُلُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُلْهِمَ اللهُ تَعَالَى زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ الْهِدَايَةَ إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَهُمْ يَرَوْنَهُ مُعَظِّمًا هُوَ وَإِخْوَانُهُ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ.

فَلَمَّا بَلَغَ «ذَا الْحُلَيْفَةِ» وَهِيَ عَلَى أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، تَوَقَّفَ قَلِيلًا وَأَحْرَمَ وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِحْرَامِ، ثُمَّ قَدَّمَ الْخَيْلَ أَمَامَهُ وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ «مُحَمَّدَ بْنَ

مَسْلَمَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَائِدًا، كَمَا قَدَّمَ السِّلَاحَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ «بَشِيرَ بْنَ سَعْدٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقَ الْفَرْعِ.

كَانَ حُدَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي سَيْرِهِمْ نَحْوَ مَكَّةَ هُوَ التَّلْبِيَةُ، وَمَا انْفَكَّ لِسَانُهُمْ عَنِ الدُّعَاءِ قَائِلِينَ:

- لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ.

انْفَصَلَ «مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ» عَنِ الْجُمُوعِ بِفُرْسَانِهِ مُتَقَدِّمًا فِي الطَّلِيعَةِ، حَتَّى بَلَغَ «مَرَّ الظَّهْرَانِ» وَهُوَ مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ، فَوَجَدَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ بِالْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ، وَإِلَى أَيْنَ يَقْصِدُ، فَقَالَ لَهُمْ:

- إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصْبِحُ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَسَكَتُوا وَلَمْ يُجِيبُوا بِشَيْءٍ، وَعَادُوا إِلَى مَكَّةَ مُسْرِعِينَ حَيْثُ أَخْبَرُوا النَّاسَ بِمَا شَاهَدُوا مِنْ طَلَائِعِ قُوَّاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ قَائِدِ فُرْسَانِهِمْ «مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ»، فَفَزِعَ الْقُرَشِيُّونَ وَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ:

- مَا أَحْدَثْنَا حَدَثًا، وَإِنَّا عَلَى كِتَابِنَا وَمُدَّتِنَا. فَفِيمَ يَغْزُونَا «مُحَمَّدٌ»؟!

أَيْ أَنَّنَا لَمْ نَأْتِ أَمْرًا فَنَنْقُضَ بِهِ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ «مُحَمَّدٍ»، وَنَحْنُ مَا زِلْنَا عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَلِمَاذَا يَغْزُونَا؟

ثُمَّ اجْتَمَعُوا وَتَشَاوَرُوا، وَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا وَفْدًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْتَوْضِحُوا الْأَمْرَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْرَابُ قُرَيْشٍ وَاسْتِهْجَانُهَا مِنْ مَجِيءِ

النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِلْعُمْرَةِ، وَلَكِنَّ تَعَجُّبَهُمْ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَمْلِ السِّلَاحِ، وَتَقَدُّمِ الْفُرْسَانِ، فَظَنُّوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُمْ غَازِيًا.

وَتَرَأَّسَ الْوَفْدَ «مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ»، فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ بَطْنِ «يَاجِجَ» وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَالْهَدْيُ وَالسِّلَاحُ يَتَلَاحَقُ.

فَاجْتَمَعُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ:

ـ وَاللهِ مَا عُرِفْتَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ، تَدْخُلُ بِالسِّلَاحِ فِي الْحَرَمِ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ لَهُمْ أَنْ لَا تَدْخُلَ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ.

فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ إِنِّي لَا أَدْخُلُ عَلَيْهِمْ بِسِلَاحٍ.

فَقَالَ «مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ»:

ـ هُوَ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ، الْبِرُّ وَالْوَفَاءُ.

يَا للهِ... أَيْنَ هِيَ قُرَيْشٌ الْمُتَغَطْرِسَةُ الْمُتَكَبِّرَةُ؟! أَيْنَ هِيَ قُرَيْشٌ الْمُتَجَبِّرَةُ؟! أَيْنَ هِيَ قُرَيْشٌ النَّاكِرَةُ الْمَاكِرَةُ؟! أَيْنَ هِيَ؟!

لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْيَوْمَ مُسْتَرْحِمَةً ضَعِيفَةً...

فَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ.

ثُمَّ رَجَعَ «مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ» إِلَى مَكَّةَ، وَقَالَ لِلْمُؤْتَمِرِينَ الَّذِينَ ابْتَعَثُوهُ:

ـ إِنَّ مُحَمَّدًا عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ لَكُمْ.

فَاطْمَأَنُّوا بَعْدَ جَزَعٍ، وَهَدَأُوا بَعْدَ فَزَعٍ، وَاسْتَرَاحَتْ نُفُوسُهُمْ بَعْدَ قَلَقٍ

وَحَيْرَةٍ، وَانْفَضَّ مُؤْتَمَرُهُمْ، وَقَامَ فِيهِمْ مَنْ يَدْعُو إِلَى إِخْلَاءِ مَكَّةَ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى الْمُسْلِمِينَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ مُعَظِّمِينَ مُلَبِّينَ، وَيَسْعَوْنَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مُسَبِّحِينَ.

خَلَّفَ النَّبِيُّ ﷺ السِّـــلَاحَ بِبَطْنِ «يَاجِجَ» وَتَرَكَ مِئَتَيْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى أُهْبَةِ الِاسْتِعْدَادِ إِنْ نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ غَدْرٌ أَنْجَدُوهُمْ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ «أَوْسَ ابْنَ خَوْلِيٍّ الْأَنْصَارِيَّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَمَـــا كَانَ أَعْظَمَ وَلَا أَرْوَعَ مِنْ مَنْظَرِ دُخُولِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، كَانَ ﷺ مُحَاطًا بِإِخْوَانِهِ وَأَصْحَابِهِ، رَاكِبًا نَاقَتَهُ «الْقَصْوَاءَ»، وَالْمُسْلِمُونَ مُتَوَشِّحُونَ سُيُوفَهُمْ وَيُحَدِّقُونَ بِهِ ﷺ وَيُحِيطُونَ بِهِ؛ وَدَخَلَ مِنَ الثَّنِيَّةِ الَّتِي تُطْلِعُهُ عَلَى «الْحُجُونِ».

وَكَانَ «عَبْـــدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» الْأَمِيرُ الشَّـــاعِرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آخِذًا بِزِمَامِ رَاحِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، مَاشِيًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

خَلُّـــوا بَنِـــي الْكُفَّارِ عَنْ سَـــبِيلِهِ
الْيَوْمَ نَضْـــــرِبُكُمْ عَـــلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًـــا يُزِيـــلُ الْهَامَ عَـــنْ مَقِيلِهِ
وَيُذْهِـــلُ الْخَـــلِيلَ عَـــنْ خَلِيلِهِ
نَحْنُ قَتَـــلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيـــلِهِ
كَـــمَا قَتَلْنَاكُـــمْ عَـــلَى تَنْزِيلِهِ

قَـــدْ أَنْـــزَلَ الرَّحْمَـــنُ في تَنْزِيلِهِ

بِأَنَّ خَـــيْرَ الْقَتْـــلِ في سَـــبِيلِهِ

يَـــا رَبِّ إِنِّـــي مُـــؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

إِنِّـــي رَأَيْـــتُ الْحَـــقَّ في قَبُولِـــهِ

فَأَرَادَ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ أَنْ يَكُفَّهُ عَنْ مُتَابَعَةِ الْقَوْلِ، فَقَالَ لَهُ:

ـ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، أَبَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفي حَرَمِ اللهِ تَعَالَى تَقُولُ الشِّعْرَ؟

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ خَلِّ عَنْهُ يَا «عُمَرُ» فَإِنَّهَا (هَذِهِ الْأَبْيَاتَ) أَسْرَعُ في نِكَايَتِهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ.

ثُمَّ الْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى «عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ»، وَقَالَ لَهُ:

ـ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

فَقَالَهَا «ابْنُ رَوَاحَةَ»، وَقَالَهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ.

وَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُلَبِّي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ بِمِحْجَنِهِ مُضْطَبِعًا بِثَوْبِهِ.

وَكَانَ الْمُشْـــرِكُونَ مِنَ الْقُرَشِـــيِّينَ قَدْ تَرَكُوا مَكَّةَ وَصَعِدُوا في جِبَالِهَا؛ كَرَاهَةَ أَنْ يُشَاهِدُوا الْمُسْلِمِينَ في سَعْيِهِمْ وَطَوَافِهِمْ، كَمَا أَشَاعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ سَوْفَ يَكُونُونَ مَرْضَى بِحُمَّى يَثْرِبَ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا في طَوَافِهِمْ وَسَعْيِهِمْ (أَيْ يُسْرِعُوا) زِيَادَةً في إِغَاظَةِ الْمُشْرِكِينَ.

وَتَلَاوَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَقَالُوا:

ـ هَـــلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى وَهَنَتْهُمْ؟! لَهَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، إِنَّهُمْ لَيَنْفِرُونَ نَفْرَ الظَّبْيِ.

وَبَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، نَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَدْيَهُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ، ثُمَّ حَلَقَ تَتْمِيمًا لِأَعْمَالِ الْعُمْرَةِ.

ثُـــمَّ أَمَرَ مِئَتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَدَّوْا مَنَاسِـــكَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى بَطْنِ «يَاجِجَ» لِيَحِلُّوا مَحَلَّ إِخْوَانِهِمْ فِي حِرَاسَةِ السِّلَاحِ، وَيَأْتِي الْآخَرُونَ لِيَقْضُوا نُسُكَهُمْ، فَفَعَلُوا.

وَظَلَّ الرَّسُولُ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ـ وَهِيَ الْمَفْرُوضَةُ فِي عَهْدِ الْحُدَيْبِيَةِ ـ ضَجَّ زُعَمَاءُ الْمُشْرِكِينَ خِلَالَهَا، خَاصَّةً وَأَنَّ وُجُودَهُمْ قَدْ جَذَبَ قُلُوبَ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ بَهَرَتْهُمْ قُوَّةُ الْإِيمَانِ، فَمَالَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَكَانَتْ «مَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَـــارِثِ» أُخْتُ «أُمِّ الْفَضْلِ» زَوْجَةِ «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ شَاهَدَ الْمُسْلِمِينَ وَرَأَى أَعْمَالَ عُمْرَتِهِمْ.

فَهَوَتْ بِقَلْبِهَا إِلَى الْإِسْـــلَامِ، وَأَعْلَنَتْ رَغْبَتَهَا فِيمَنْ حَوْلَهَا، كَمَا أَنَّهَا تَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَأَتَى «الْعَبَّاسُ» إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَخَاطَبَهُ فِي أَمْرِ «مَيْمُونَةَ» أُخْتِ زَوْجَتِهِ الَّتِي آمَنَتْ بِدِينِهِ وَاخْتَارَتِ الْإِسْلَامَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا.

فَقَبِلَ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَصْدَقَهَا أَرْبَعَمِئَةِ دِرْهَمٍ.

وَكَانَتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا قَدِ انْتَهَتْ، فَجَاءَ «سُـــهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو» وَ«حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى» قَائِلَيْنِ:

ـ نَنْشُدُكَ اللهَ وَالْعَهْدَ إِلَّا مَا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا.

فَرَدَّ عَلَيْهِمَا «سَـــعْدُ بْنُ عُبَادَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَدًّا قَاسِيًا، فَأَسْكَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِمَا قَائِلًا:

ـ مَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْـــتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ!!

قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَّخِذَ مِـــنْ زَوَاجِهِ بِـ «مَيْمُونَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَسِيلَةً لِزِيَادَةِ التَّفَاهُمِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ.

فَأَجَابُوهُ قَائِلَيْنِ:

ـ لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، فَاخْرُجْ عَنَّا...

وَبَيْنَمَا كَانَ الْمُسْـــلِمُونَ يَتْرُكُونَ مَكَّةَ تَبِعَتْهُمْ «أَسْمَاءُ» ابْنَةُ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ تُنَادِي:

ـ يَا عَمِّ، يَا عَمِّ.

فَتَنَاوَلَهَا «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَجَعَلَهَا فِي هَوْدَجِ «فَاطِمَةَ».

وَعَادَ النَّبِـــيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ أَدَّى (عُمْرَةَ الْقَضَاءِ)، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ هُوَ وَإِخْوَانُهُ مُعَظِّمِينَ لِحُرُمَاتِ اللهِ، آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ، وَكَانَ ذَلِكَ مُقَدِّمَةً لِلْفَتْحِ الْعَظِيمِ، «فَتْحِ مَكَّةَ».

13

غَزْوَةُ فَتْحِ مَكَّةَ

غَزْوَةُ فَتْحِ مَكَّةَ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

تَوْطِئَةٌ:

«فَتْحُ مَكَّةَ» هُوَ الْفَتْحُ الَّذِي اسْتَبْشَرَ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَضَرَبَتْ أَطْنَابُ عِزِّهِ عَلَى مَنَاكِبِ الْجَوْزَاءِ، وَدَخَلَ النَّاسُ بِسَبَبِهِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَأَشْرَقَ بِهِ وَجْهُ الْأَرْضِ ضِيَاءً وَابْتِهَاجًا.

لَقَدْ فَارَقَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِرَارًا بِدِينِهِ، وَهَاجَرَهَا اتِّقَاءً لِفِتْنَةِ الظَّالِمِينَ وَالْمُسْتَبِدِّينَ، وَغَادَرَهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، مُحْتَمِيًا بِالْغَارِ الَّذِي أَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَحَجَّةً وَمَقْصِدًا، وَلَاذَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ، مَوْئِلِ الْمَظْلُومِينَ، وَكَهْفِ الْمُطَارَدِينَ الْمُعَذَّبِينَ، وَوَاحَةِ الْمُضْطَهَدِينَ، وَأَمَانِ الْخَائِفِينَ، فَلَمْ يُخَيِّبِ اللهُ تَعَالَى رَجَاءَهُ، وَاللهُ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَاللهُ يَتَوَلَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ.

وَهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ إِلَيْهَا عَزِيزًا قَوِيًّا، مُؤَزَّرًا مَنْصُورًا، تَحُفُّ بِهِ الْكَتَائِبُ، وَيُحِيطُ بِهِ الْجُنْدُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَهَا هُمْ أُولَاءِ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهُ وَقَهَرُوهُ يَقِفُونَ مِنْهُ مَوْقِفَ الْخَاشِعِ الذَّلِيلِ، يَرْجُونَهُ الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ.

فَهَلْ يَنْتَقِمُ وَيَثْأَرُ؟ أَمْ يُسَامِحُ وَيَعْذُرُ؟

لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ عَنْهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

فَيَقُولُ قَوْلَتَهُ الْخَالِدَةَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» ﷺ.

أَسْبَابُهَا:

عَلِمْتَ مِمَّا تَقَدَّمَ فِي غَزْوَةِ «الْحُدَيْبِيَةِ» أَنَّهُ كَانَ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا عَهْدُ الصُّلْحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ مِنَ الْعَرَبِ فِي عَهْدِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ فَلَهُ ذَلِكَ، وَأَنَّ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ فَلَهُ مَا أَرَادَ.

فَدَخَلَتْ قَبِيلَةُ «خُزَاعَةَ» فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِلْفِهِ؛ لِمَا كَانَ بَيْنَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ وَبَيْنَ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» مِنْ وَلَاءٍ وَتَحَالُفٍ. وَدَخَلَتْ قَبِيلَةُ «بَنِي بَكْرٍ» فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَحِلْفِهَا.

وَفِي أَثْنَاءِ فَتْرَةِ الْهُدْنَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ عَدَتْ قَبِيلَةُ «بَنِي بَكْرٍ» عَلَى «خُزَاعَةَ» وَقَتَلُوا مِنْهُمْ رَجُلًا، وَاسْتَعَرَ الْقِتَالُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَاشْتَدَّ أُوَارُهُ، كَمَا سَاهَمَتْ

قُرَيْشٌ مِنْ جَانِبِهَا فِي إِنْجَادِ «بَنِي بَكْرٍ» وَمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى قِتَالِ الْخُزَاعِيِّينَ، فَكَانَ هَذَا مِنْ جَانِبِ قُرَيْشٍ نَقْضًا لِلْعَهْدِ الَّذِي وَقَّعَتْهُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَمَّا تَوَقَّفَ الْقِتَالُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ـ وَقَدْ ذَهَبَ مِنْ «خُزَاعَةَ» مَا يَزِيدُ عَلَى الْعِشْرِينَ قَتِيلًا ـ خَرَجَ «سَالِمُ بْنُ عَمْرٍو الْخُزَاعِيُّ» إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِيُبَلِّغَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا حَدَثَ.

فَدَخَلَ «سَالِمٌ» إِلَى الْمَسْجِدِ حَيْثُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُجْتَمِعًا بِأَصْحَابِهِ، وَقَالَ:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا
حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي «كَدَاءٍ» رُصَّدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَبَدَا
وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا
وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ إِنْشَادِهِ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ نُصِرْتَ يَا «سَالِمُ بْنَ عَمْرٍو»، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَمْنَعَنَّكُمْ مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي.

ثُمَّ قَالَ:

ـ ارْجِعُوا وَتَفَرَّقُوا فِي الْأَوْدِيَةِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِخْفَاءَ مَجِيئِهِمْ حَتَّى لَا تَشْعُرَ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَغِلَّ عُنْصُرَ الْمَفَاجَأَةِ وَالْمُبَاغَتَةِ فِي شَأْنِ «فَتْحِ مَكَّةَ».

أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ قُرَيْشٍ فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ زُعَمَائِهَا قَدْ شَعَرُوا بِخُطُورَةِ مَا فَعَلَهُ «بَنُو بَكْرٍ» مِنْ نَقْضٍ لِلْعَهْدِ وَتَوَرُّطِ بَعْضِ الْقُرَشِيِّينَ فِي مُسَاعَدَتِهِمْ فِي الْإِغَارَةِ عَلَى «بَنِي خُزَاعَةَ».

عِنْدَئِذٍ قَامَ «أَبُو سُفْيَانَ» بِمُهِمَّةِ السَّفِيرِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ؛ لِيُؤَكِّدَ الْعَهْدَ وَيَعْتَذِرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْ «بَكْرٍ» وَ«قُرَيْشٍ»، وَيُسَاهِمَ فِي دَفْعِ دِيَةِ الْقَتْلَى مِنْ «خُزَاعَةَ».

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ دَخَلَ عَلَى بِنْتِهِ «أُمِّ حَبِيبَةَ» زَوْجَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، فَطَوَتْهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا:

ـ يَا بُنَيَّةُ مَا أَدْرِي، أَرَغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ، أَمْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟!

فَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

ـ بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، وَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ لَهَا:

ـ وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ يَا بُنَيَّةُ بَعْدِي شَرٌّ.

فَأَجَابَتْ:

ـ بَلْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ، فَأَنْتَ يَا أَبَتِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَكَبِيرُهَا، كَيْفَ يَسْقُطُ عَنْكَ الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ تَعْبُدُ حَجَرًا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ؟!

فَقَامَ مِنْ عِنْدِهَا وَهُوَ غَاضِبٌ ثَائِرٌ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُحَاوِلًا أَنْ يُحَدِّثَهُ فِي شَأْنِ تَجْدِيدِ الْعَهْدِ وَتَوْكِيدِهِ، فَأَبَى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ.

فَرَاحَ «أَبُو سُفْيَانَ» يُوَسِّطُ «عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ» تَارَةً وَ«أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا تَارَةً أُخْرَى، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

فَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ، خَالِيَ الْوِفَاضِ، لَمْ يَنْجَحْ فِي مُهِمَّتِهِ الَّتِي سَعَى إِلَيْهَا، فَأَخَذَتْ زَوْجَتُهُ «هِنْدٌ» تُوَبِّخُهُ وَتُقَرِّعُهُ عَلَى تَأْخِيرِهِ وَفَشَلِهِ قَائِلَةً:

ـ قُبِّحْتَ مِنْ سَفِيرِ قَوْمٍ، فَمَا جِئْتَ بِخَيْرٍ!

وَذَاعَ خَبَرُ عَوْدَةِ «أَبِي سُفْيَانَ» مِنَ الْمَدِينَةِ خَائِبًا، فَأُسْقِطَ فِي يَدِ قُرَيْشٍ، وَأَخَذَ زُعَمَاؤُهَا يَحْسِبُونَ وَيُفَكِّرُونَ، وَالْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ يُخَيِّمَانِ عَلَى أَجْوَاءِ مَكَّةَ، وَالْحَذَرُ مَعَ الرَّهْبَةِ يُسَيْطِرَانِ عَلَى بَنِيهَا.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالِاسْتِعْدَادِ وَالتَّجَهُّزِ لِلْغَزْوِ، وَلَكِنْ

دُونَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ بِوِجْهَتِهِ، فَكَانَ يُرَدِّدُ وَيَقُولُ:

ـ اللَّهُمَّ خُذْ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَرَوْنَا إِلَّا بَغْتَةً، وَلَا يَسْمَعُونَ بِنَا إِلَّا فَلْتَةً.

وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَبَائِلِ يَدْعُوهَا لِمُوَافَاتِهِ بِالْمَدِينَةِ، وَرَصَدَ الطُّرُقَ الْمُحِيطَةَ بِهَا، وَأَمَرَ جَمَاعَةً أَنْ يُقِيمُوا بِالْأَنْقَابِ، فَكَانَ «عُمَرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحَذِّرُهُمْ قَائِلًا:

ـ لَا تَدَعُوا أَحَدًا يَمُرُّ بِكُمْ تُنْكِرُونَهُ إِلَّا رَدَدْتُمُوهُ.

إِلَّا أَنَّ أَحَدَ الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ قَدْ صَدَرَتْ عَنْهُ زَلَّةٌ نَدِمَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّدَمِ، وَمَا كَانَ تَصَرُّفُهُ إِلَّا عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، فَقَدْ كَتَبَ «حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ» ـ حَلِيفُ بَنِي أَسَدٍ ـ كِتَابًا أَعْطَاهُ لِامْرَأَةٍ وَنَقَدَهَا عَلَيْهِ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ أَجْرًا يُحَذِّرُ فِيهِ قُرَيْشًا مِنَ الْغَزْوِ.

فَأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ فِي إِثْرِ الْمَرْأَةِ «الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ» وَ«عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ» لِيُمْسِكَا بِهَا وَيَسْتَرِدَّا الْكِتَابَ، وَيَحْتَجِزَاهَا، فَفَعَلَا.

وَكَانَ كِتَابُ «حَاطِبٍ» تَحْذِيرًا لِقُرَيْشٍ مِنَ الْغَزْوِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَضَمَّنَ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي النِّفَاقِ أَوِ الْمُرُوقِ مِنَ الدِّينِ، وَهَذَا مَا شَفَعَ لِـ «حَاطِبٍ» عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَفَا عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْ «حَاطِبٍ»:

ـ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ.

كَمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الشَّأْنِ قُرْآنًا فَقَالَ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ثُمَّ وَافَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْوُفُودُ مِنْ قَبَائِلِ: «أَسْلَمَ» وَ«غِفَارٍ» وَ«أَشْجَعَ» وَ«سُلَيْمٍ»، فَكَانَ عَدَدُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ.

وَخَرَجَ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ لِعَشْرٍ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ.

وَلَمَّا بَلَغَ «الْكَدِيدَ» أَفْطَرَ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ.

وَكَانَ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ خَرَجَ بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ مُهَاجِرًا، فَلَقِيَ رَسُولَ اللهِ بِالْجُحْفَةِ.

فَلَمَّا بَلَغُوا «الْكَدِيدَ» عَقَدَ ﷺ الرَّايَاتِ وَالْأَلْوِيَةَ وَرَفَعَهَا لِلْقَبَائِلِ.

فَلَمَّا نَزَلُوا بِمَرِّ الظَّهْرَانِ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فَأَوْقَدُوا عَشَرَةَ آلَافِ نَارٍ؛ لِتَرَاهَا قُرَيْشٌ أَوْ تَسْمَعَ بِهَا فَتُرْعَبَ مِنْ كَثْرَتِهَا.

كَمَا اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ رَسُولِهِ ﷺ، فَأَخَذَ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَلَمْ يُبَلِّغْهُمْ مَسِيرَهُ وَهُمْ مُغْتَمُّونَ مَحْزُونُونَ مُتَحَيِّرُونَ خَائِفُونَ.

وَحَدَّثَتِ «الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» نَفْسُهُ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبًا مِنْ حُدُودِ مَكَّةَ؛ لَعَلَّهُ يَلْقَى أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا فَيُخْبِرُهُ بِقُدُومِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَخْرُجُوا لِمُلَاقَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَسْتَأْمِنُوهُ؛ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً، أَوْ تَجْنَحَ بِهِمْ جَاهِلِيَّتُهُمْ فَيَتَصَدَّوْا لِلْقِتَالِ، وَهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِذَلِكَ، فَتَكْثُرَ الدِّمَاءُ،

وَيَسْتَشْرِيَ الْقَتْلُ.

فَخَـــرَجَ لَيْلًا عَلَى بَغْلَةِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى حَاذَى حُدُودَ مَكَّةَ، وَهُنَاكَ ـ لِأَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ ـ الْتَقَى «أَبَا سُـــفْيَانَ» وَ«حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ» وَ«بُدَيْلَ ابْنَ وَرْقَاءَ» يَتَجَسَّسُـــونَ الْأَخْبَارَ، فَأَخَذَ «أَبَا سُـــفْيَانَ» خَلْفَهُ وَعَادَ بِهِ إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى أَتَى بِهِ إِلَى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْمَنَهُ عَلَى «أَبِي سُفْيَانَ» فَأَمَّنَهُ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ أَرَادَ «الْعَبَّاسُ» تَثْبِيتَ إِسْلَامِ «أَبِي سُفْيَانَ» لِئَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ مَتْبُوعًا فَأَصْبَحَ تَابِعًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَقَالَ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ «أَبَا سُفْيَانَ» رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا.

فَقَالَ ﷺ:

ـ مَنْ دَخَلَ دَارَ «أَبِي سُفْيَانَ» فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ أَنْ يَحْتَجِزَ «أَبَا سُـــفْيَانَ» حَتَّى تَمُرَّ بِهِ كَتَائِبُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا يُوقِعُ الْهَيْبَةَ فِي نَفْسِهِ، فَمَرَّتِ الْجُنُودُ بِرَايَاتِهَا وَأَعْلَامِهَا، وَخُيُولِهَا وَجُنُودِهَا، حَتَّى كَانَتْ كَتِيبَةُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ ـ الْكَتِيبَةُ الْخَضْرَاءُ ـ يَحُفُّ بِهِ أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ مُتَسَـــرْبِلُونَ بِالدُّرُوعِ وَالْمَغَافِرِ، لَا تَظْهَرُ مِنْهُمْ إِلَّا حُدُقُ عُيُونِهِمْ، فَقَالَ «أَبُو سُـــفْيَانَ» لِـ«الْعَبَّاسِ»:

ـ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا يَا «أَبَا الْفَضْلِ».

فَقَالَ «الْعَبَّاسُ»:

ـ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ يَا «أَبَا سُفْيَانَ».

ومَا زَالَا فِي مَوْقِفِهِمَا حَتَّى مَرَّتْ كُلُّ الْفِرَقِ وَالْكَتَائِبِ، ثُمَّ غَادَرَا الْمَكَانَ: «أَبُو سُفْيَانَ» إِلَى مَكَّةَ يُنْذِرُ أَهْلَهَا، وَ«الْعَبَّاسُ» إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ يَلْتَحِقُ بِصُفُوفِهِمْ، وَيَتَّخِذُ مَوْقِعَهُ بَيْنَهُمْ.

دَخَلَ «أَبُو سُفْيَانَ» مَكَّةَ، وَأَطْلَقَ الْإِنْذَارَ الَّذِي سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاضْطَرَبَ النَّاسُ، وَاشْتَدَّ خَوْفُهُمْ، وَانْتَشَرَ الذُّعْرُ بَيْنَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، إِلَّا أَنَّ نَفَرًا مِمَّنِ اسْتَبَدَّتْ بِهِمْ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَعُنْفُوَانُهَا وَجَبَرُوتُهَا أَبَوْا إِلَّا أَنْ يُقَاوِمُوا.

وَدَخَلَ ﷺ مِنَ الثَّنِيَّةِ الْعُلْيَا، وَأَمَرَ «خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ» أَنْ يَدْخُلَ مِنَ الثَّنِيَّةِ السُّفْلَى.

دَخَلَهَا ﷺ مُتَوَاضِعًا للهِ تَعَالَى حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنْ فَتْحِ اللهِ وَكَثْرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يُرَدِّدُ:

ـ اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ.

وَلَقَدْ لَقِيَ «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» عِنْدَ دُخُولِهِ مِنَ الثَّنِيَّةِ السُّفْلَى بَعْضَ الْمُقَاوَمَةِ، وَلَكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَيْهَا وَظَفِرَ بِهَا، وَانْهَزَمَ أَمَامَهُ أَصْحَابُهَا، فَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَسْلَمَ وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ.

وَأَمَرَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ بِضَرْبِ أَعْنَاقِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْكُفَّـــارِ أَهْدَرَ دَمَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

وَاجْتَمَعَ النَّـــاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَكَبَّرَ اللهَ تَعَالَى حَامِدًا وَمُصَلِّيًا، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْجَمْعِ قَائِلًا:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

فَقَالُوا:

ـ خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

فَقَالَ ﷺ:

ـ اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

ثُمَّ أَمَرَ بِمَفَاتِيـــحِ الْكَعْبَةِ فَأُحْضِرَتْ، فَفَتَحَهَا وَدَخَلَهَا وَأَزَالَ مَا كَانَ بِهَا مِنْ رُسُـــومٍ وَتَصَاوِيرَ، كَمَا أَنَّهُ ﷺ أَمَرَ بِتَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَتْ تَمْلَأُ فِنَاءَ الْمَسْجِدِ، كَمَا شَارَكَ فِي التَّحْطِيمِ بِقِدْحٍ كَانَ يَحْمِلُهُ بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

ـ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

وَهَكَذَا تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ عَدْلًا وَصِدْقًا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

وَتَهَاوَتْ قَلْعَةٌ كَانَتْ لِلشِّرْكِ مَوْئِلًا، وَرَمْزًا لِلْوَثَنِيَّةِ وَالْجَاهِلِيَّةِ سِنِينَ عَدَدًا.

وَعَادَتْ إِلَى صَفَاءِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ الَّتِي أُسِّسَ «الْبَيْتُ الْحَرَامُ» عَلَيْهَا.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ بَعْضُ الْأَنْصَارِ هَمْسًا:

ـ لَقَدْ لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ بَلَدَهُ وَأَهْلَـــهُ وَمَوْطِنَهُ، وَلَنْ يَعُودَ إِلَى «الْمَدِينَةِ» بَعْدَ هَذَا.

فَوَصَلَ ذَلِكَ إِلَى مَسَامِعِهِ الشَّرِيفَةِ، فَقَالَ:

ـ مَعَاذَ اللهِ، الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ.

فَسَجَّلَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنْصَعَ صَفْحَةٍ فِي تَارِيخِ الْوَفَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

14

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

تَوْطِئَةٌ:

«لَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ـ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ ـ يُحَطِّمُ الطَّوَاغِيتَ، الطَّوَاغِيتَ كُلَّهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ فِي عَالَمِ الضَّمِيرِ أَمْ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ رَجُلًا آخَرَ غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ حَطَّمَ مِنَ الطَّوَاغِيتِ قَدْرَ مَا حَطَّمَ هَذَا الرَّجُلُ، وَفِي فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَانِ قَصِيرَةٍ شَدِيدَةِ الْقِصَرِ... مِمَّا يَقْطَعُ بِأَنَّ هُنَالِكَ قُوَّةً أَكْبَرَ مِنْ طَاقَةِ الْبَشَرِ كَانَتْ تُؤَيِّدُ

هَذَا الرَّجُلَ، وَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَمِدُّ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ، وَكَانَ عَلَى اتِّصَالٍ بِهَا وَثِيقٍ».

«... لَقَدْ كَانَتْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ثَوْرَةً تَحْرِيرِيَّةً كَامِلَةً لِلْإِنْسَانِيَّةِ، ثَوْرَةً شَـــمِلَتْ كُلَّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَـــانِيَّةِ، وَحَطَّمَتِ الطَّوَاغِيتَ عَلَى اخْتِلَافِ أَسْمَائِهَا فِي هَذِهِ الْجَوَانِبِ جَمِيعًا».

«... وَكَانَتْ ثَوْرَةً عَلَى طَاغُوتِ التَّفْرِقَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنِّظَامِ الطَّبَقِيِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَهُونُ عَلَى سَـــادَةِ قُرَيْشٍ إِلَّا تَحْطِيمَ الْفَخْرِ بِالْأَنْسَابِ وَالِاعْتِزَازِ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَمَا كَانَ يَخْفَى عَلَى ذَكَاءِ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ مَا فِي عَقَائِدِهِمْ مِنْ سُـــخْفٍ، وَمَا فِي أَصْنَامِهِمْ مِنْ سَذَاجَةٍ، وَمَا كَانَ يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَنَّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ «مُحَمَّدٌ» ﷺ خَيْـــرٌ بِمَا لَا يُقَاسُ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ» (عن كتاب «دراسات إسلامية»، للمرحوم سيد قطب).

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

وَهُوَ اسْمُ مَوْضِعٍ فِي طَرِيقِ «الطَّائِفِ»، وَتُسَمَّى غَزْوَةَ «هَوَازِنَ» نِسْبَةً إِلَى قَبِيلَةِ «هَوَازِنَ» إِحْدَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْكُبْرَى.

وَسَبَبُهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ أَنْ فَتَحَ «مَكَّةَ» وَأَرْسَلَ السَّرَايَا ـ وَهِيَ الْقُوَّاتُ الَّتِـــي كَانَ يُؤَمِّرُ عَلَيْهَا بَعْضَ أَصْحَابِهِ ـ لِهَـــدْمِ أَصْنَامِ الْقَبَائِلِ وَأَوْثَانِهَا، اجْتَمَعَ أَشْرَافُ وَأَسْـــيَادُ قَبِيلَتَيْ «هَوَازِنَ» وَ «ثَقِيفٍ» وَتَشَاوَرُوا عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ خَافُوا أَنْ يَسِيرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَيَغْزُوَهُمْ.

وَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ:

- لَقَدْ فَرَغَ لَنَا، فَلَا مَانِعَ لَهُ دُونَنَا، فَالرَّأْيُ أَنْ نَغْزُوَهُ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوَنَا.

كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

- وَاللهِ مَا لَاقَي «مُحَمَّدٌ» قَوْمًا يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ!

وَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ يَعْنُونَ أَنَّهُمْ أَشَدُّ الْعَرَبِ قُوَّةً وَشَكِيمَةً، وَأَكْثَرُهُمْ بَأْسًا، وَأَعْرَفُهُمْ بِشُئُونِ الْقِتَالِ.

ثُمَّ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَوَقَعَ اخْتِيَارُهُمْ عَلَى «مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ» مِنْ هَوَازِنَ لِيَقُودَ جُمُوعَهُمْ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَبَائِلِ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَنُو «سَعْدِ ابْنِ بَكْرٍ» الَّذِينَ اسْتُرْضِعَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا.

وَجَاءَ مَعَهُمْ فَارِسُهُمُ الْمَشْهُورُ وَبَطَلُهُمُ الْمُجَرَّبُ «دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ»، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ كَبِرَ وَشَاخَ وَهَرِمَ وَأُصِيبَ بِالْعَمَى، وَصَارَ لَا يُنْتَفَعُ إِلَّا بِرَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ رَأْيٍ وَتَدْبِيرٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْحُرُوبِ.

وَكَانَ قَائِدُ ثَقِيفٍ «كِنَانَةَ بْنَ عَبْدِ يَالِيلَ» عَلَى رَأْسِ أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ مُقَاتِلِيهِمْ.

وَلَقَدِ اكْتَمَلَ عَدَدُ الْعَدُوِّ ثَلَاثِينَ أَلْفًا غَيْرَ الذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ.

وَاشْتَرَطَ الْجَمِيعُ عَلَى الْقَائِدِ الْأَعْلَى «مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ» الَّذِي كَانَ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ شَابًّا طَرِيَّ الْعُودِ أَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِ «دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ».

ثُـــمَّ أَمَرَهُمْ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» أَنْ يَسُـــوقُوا مَعَهُمْ مَوَاشِـــيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ؛ كَيْ يَثْبُتُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا يَفِرُّوا.

فَلَمَّا نَزَلَتْ جُمُوعُهُمْ بِمَـــكَانٍ يُدْعَى «أَوْطَاسَ» مِنْ «حُنَيْنٍ»، قَالَ «دُرَيْدُ ابْنُ الصِّمَّةِ»:

ـ مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَبُكَاءَ الصَّغِيرِ؟!

فَأَجَابُوهُ بِأَنَّ «مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ» أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَسَأَلَهُمْ:

- أَيْنَ هُوَ؟

وَطَلَبَ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ «دُرَيْدٌ»:

ـ إِنَّكَ تُقَاتِلُ رَجُلًا كَرِيمًا ـ يَعْنِي النَّبِـــيَّ ﷺ ـ قَدْ أَوْطَأَ الْعَرَبَ، وَخَافَتْهُ الْعَجَمُ، وَأَجْلَى يَهُودَ.

فَقَالَ لَهُ «مَالِكٌ»:

ـ لَا نُخَالِفُكَ فِي أَمْرٍ تَرَاهُ...

فَقَالَ «دُرَيْدٌ»:

ـ يَا «مَالِكُ» أَصْبَحْتَ رَئِيسَ قَوْمِكَ، وَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ، مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَبُكَاءَ الصَّغِيرِ؟!

قَالَ «مَالِكٌ»:

ـ سُقْتُ مَعَ النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

فَسَأَلَهُ «دُرَيْدٌ»:

ـ وَلِمَ؟

قَالَ «مَالِكٌ»:

ـ أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، يُقَاتِلُ عَنْهُمْ.

فَصَرَخَ «دُرَيْدٌ» صَرْخَةً قَوِيَّةً، ثُمَّ قَالَ:

ـ رُوَيْعِيُّ ضَأْنٍ (رَاعِي غَنَمٍ لَا يَنْفَعُ لِأُمُورِ الْحَرْبِ وَقِيَادَةِ الْمَعَارِكِ)، وَاللهِ مَا لَهُ وَلِلْحَرْبِ!

ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ الذُّرِّيَّةِ وَالْأَمْوَالِ، وَقَالَ مُخَاطِبًا «مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ»:

ـ هَلْ يَرُدُّ الْمُنْهَزِمَ شَـــيْءٌ إِلَّا رُمْحَهُ وَسَـــيْفَهُ، لَا هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَالْمَوَاشِي، وَإِذَا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْكَ وَهُزِمْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، فُضِحْتَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ.

فَلَمْ يَقْبَلْ «مَالِكٌ» أَنْ يَأْخُذَ بِمَشُورَةِ «دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ»، وَقَالَ:

ـ وَاللهِ لَا أُطِيعُكَ؛ لِأَنَّكَ قَدْ كَبِرْتَ وَضَعُفَ رَأْيُكَ!

فَأَرَادَ «دُرَيْدٌ» أَنْ يَعُودَ، وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَمَنَعُوهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ «مَالِكٌ» السَّيْفَ عِنْدَ بَطْنِهِ، وَقَالَ لِـ «هَوَازِنَ»:

ـ لَتُطِيعُنَّنِي يَا مَعْشَرَ «هَوَازِنَ» أَوْ لَأَتَّكِئَنَّ عَلَى هَذَا السَّيْفِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي.

وَهَدَّدَهُمْ بِقَتْلِ نَفْسِه. عِنْدَئِذٍ أَطَاعُوهُ وَخَالَفُوا «دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ»، ثُمَّ رَتَّبَ

«مَالِكٌ» جَيْشَـــهُ، فَجَعَلَ الْخَيْلَ فِي الْمُقَدِّمَةِ صُفُوفًا، وَجَعَلَ الْمُشَاةَ خَلْفَهُمْ، وَمِنْ بَعْدِهِمُ النِّسَاءُ، وَخَلْفَ الْجَمِيعِ الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ.

عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ كَانَ اجْتِمَاعُ الْعَدُوِّ وَتَكَتُّفُهُ وَتَشَاوُرُهُ.

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا عَلِمَ بِأَمْرِ اجْتِمَاعِهِـــمْ عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ خُرُوجُهُ مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ السَّـــبْتِ فِي السَّادِسِ مِنْ شَوَّالٍ، وَقَدْ بَلَغَ عَدَدُ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا.

وَلَقَدِ اضْطُرَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مَالًا مِنْ بَعْضِ الْقُرَشِيِّينَ لِيُجَهِّزَ بِهِ جَيْشَهُ، فَأَخَذَ مِنْ «صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ» خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَمِنْ «عَبْدِ اللهِ ابْنِ رَبِيعَةَ» أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَمِـــنْ «حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى» أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

كَمَا أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ مِـــنْ «صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ» ثَلَاثَمِئَةِ دِرْعٍ، وَمِنْ «نَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ثَلَاثَةَ آلَافِ رُمْحٍ.

وَخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ ﷺ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، حَتَّى النِّسَاءُ كُنَّ يَمْشِينَ عَلَى غَيْرِ وَهَنٍ، كُلُّ ذَلِكَ رَجَاءً لِلْغُنْمِ.

وَخَلَّفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى «مَكَّةَ» «عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ» أَمِيرًا، وَ«مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» مُعَلِّمًا وَفَقِيهًا.

فَلَمَّا قَرُبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُعَسْكَرِ الْعَدُوِّ، رَتَّبَ أَصْحَابَهُ، وَصَفَّهُمْ، وَوَضَعَ الْأَلْوِيَةَ وَالرَّايَاتِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَأَعْطَى لِوَاءَ الْمُهَاجِرِينَ لِـ «عَلِيٍّ

ابْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَوَزَّعَ الرَّايَاتِ عَلَى «سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ» وَ«عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَأَعْطَى لِوَاءَ «الْخَزْرَجِ» مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى «الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ»، وَلِوَاءَ «الْأَوْسِ» لِـ «أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَلَبِسَ ﷺ دِرْعَيْنِ وَالْبَيْضَةَ (الْخُوذَةَ)، وَالْمِغْفَرَ (غِطَاءَ الْوَجْهِ)، وَرَكِبَ بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ «دُلْدُلَ».

وَكَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْحُرُوبِ الْحَدِيثَةِ أَنْ تُرْسِلَ الْجُيُوشُ عُيُونًا وَجَوَاسِيسَ لَهَا تَسْتَطْلِعُ أَخْبَارَ الْعَدُوِّ ـ عُدَّتَهُ وَعَدَدَهُ وَخُطَطَهُ ـ أَرْسَلَ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» قَائِدُ الْمُشْرِكِينَ ثَلَاثَةَ أَنْفَارٍ يَنْظُرُونَ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، فَرَجَعُوا إِلَى «مَالِكٍ» وَقَدْ تَفَرَّقَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ، وَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُمْ يَرْتَجِفُونَ، فَقَالَ:

ـ وَيْلَكُمْ مَا شَأْنُكُمْ؟

فَقَالُوا:

ـ رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ، فَوَاللهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ أَصَابَنَا مَا تَرَى، وَإِنْ أَطَعْتَنَا رَجَعْتَ بِقَوْمِكَ.

فَقَالَ:

ـ أُفٍّ لَكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ أَجْبَنُ الْقَوْمِ.

وَحَبَسَهُمْ عِنْدَهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَشِيعَ ذَلِكَ الْخَبَرُ فِي جَيْشِهِ، فَتَضْعُفَ مُقَاوَمَتُهُ.

كَمَا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدَ أَصْحَابِهِ وَهُوَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي حَدْرَدٍ الْأَسْلَمِيُّ» وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي مُعَسْكَرِ الْعَدُوِّ وَيَسْمَعَ مِنْهُمْ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، فَقَامَ «عَبْدُ اللهِ» بِالْمُهِمَّةِ خَيْرَ قِيَامٍ، فَدَخَلَ فِيهِمْ وَمَكَثَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ وَسَمِعَ مَا يَقُولُونَ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى خِبَاءِ «مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ» وَعِنْدَهُ رُؤَسَاءُ «هَوَازِنَ»، فَسَمِعَهُ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ:

- إِنَّ «مُحَمَّدًا» لَمْ يُقَاتِلْ قَوْمًا قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَلْقَى قَوْمًا أَغْمَارًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ فَيَظْهَرُ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ السَّحَرُ فَصُفُّوا مَوَاشِيَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ مِنْ وَرَائِكُمْ، ثُمَّ صُفُّوا، ثُمَّ تَكُونُ الْحَمْلَةُ مِنْكُمْ، وَاكْسِرُوا أَغْمَادَ سُيُوفِكُمْ فَتَلْقَوْنَهُ بِعِشْرِينَ أَلْفِ سَيْفٍ، وَاحْمِلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَلَبَةَ لِمَنْ حَمَلَ أَوَّلًا.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ:

- تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

- لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ.

فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَأَذَّى مِنْ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ زَهْوٌ وَخُيَلَاءُ وَاعْتِزَازٌ بِغَيْرِ اللهِ.

وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ بِالتَّحَرُّكِ، وَكَانَ الْوَقْتُ لَيْلًا وَالظَّلَامُ دَامِسًا. فَلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَادِي «حُنَيْنٍ» مَعَ غَبَشِ الصُّبْحِ، فُوجِئُوا

بِكَمِينٍ أَعَـــدَّهُ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» عِنْدَ مَضِيقِ الْوَادِي، وَرَاحَ رُمَاةُ السِّـــهَامِ مِنْ «هَوَازِنَ» يَصْلُونَ الْمُسْلِمِينَ بِسِـــهَامِهِمْ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّرَاجُعِ مُنْهَزِمِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَانْكَشَـــفَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَتْ خَيْلُ «بَنِي سُلَيْمٍ» عَنْهُ.

وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ، بَلَـــغَ عَدَدُهُمُ الثَّمَانِينَ، وَانْحَازَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ مِنَ الْمَضِيقِ، وَقَاتَلَ مَعَ إِخْوَانِهِ قِتَالًا شَدِيدًا، وَهُوَ يُرَدِّدُ:

أَنَـــا النَّـــبِيُّ لَا كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ «عَبْـدِ الْمُطَّلِبْ»

ثُمَّ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ وَرَمَاهُ فِي وُجُوهِ الْأَعْدَاءِ وَهُوَ يَقُولُ:

- شَاهَتِ الْوُجُوهُ، {حم، لَا يُنْصَرُونَ}.

فَمَا خَلَقَ اللهُ إِنْسَانًا مِنْهُمْ، إِلَّا مَلَأَ اللهُ عَيْنَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ، وَلَقَدْ حَدَّثَ أَحَدُ الَّذِينَ شَهِدُوا تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ إِلَى جَانِبِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ:

- لَقَدْ رَمَى رَسُـــولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الرَّمْيَةَ مِنَ الْحَصَى، فَمَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا شَكَا الْقَذَى (الْأَتْرِبَةَ وَالْأَوْسَـــاخَ) فِي عَيْنَيْهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَجِدُ فِي صُدُورِنَا خَفْقًا كَوَقْعِ الْحَصَى فِي الطَّاسِ، مَا يَهْدَأُ ذَلِكَ الْخَفَقَانُ.

وَقَالَ آخَرُ:

- وَسَمِعْنَا صَلْصَلَةً مِنَ السَّمَاءِ كَإِمْرَارِ الْحَدِيدِ عَلَى الطِّسْتِ.

وَأَخَذَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ يُنَادِي فِي النَّاسِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ثُمَّ طَلَبَ إِلَى عَمِّهِ

«الْعَبَّاسِ» ـ وَكَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ ـ أَنْ يَصْرُخَ وَيَقُولَ:

ـ يَا مَعْشَـــرَ الْأَنْصَارِ، يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، يَا أَصْحَابَ الْبَيْعَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ بَعْدَ أَنْ هَزَّتْهُمْ نِدَاءَاتُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ، وَكَأَنَّهُمُ اسْتَفَاقُوا مِنَ الْمُفَاجَأَةِ الَّتِي فُوجِئُوا بِهَا وَأَذْهَلَتْهُمْ.

ثُمَّ حَمِيَ الْوَطِيسُ، وَاشْـــتَدَّ الْقِتَالُ، وَعَلَا النَّقْعُ، وَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ بِالدُّعَاءِ قَائِلًا:

ـ اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ مَا وَعَدْتَنِي.. اللَّهُمَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا. اللَّهُمَّ كُنْتَ وَتَكُونُ، وَأَنْتَ حَيٌّ لَا تَمُـــوتُ، تَنَامُ الْعُيُونُ، وَتَنْكَدِرُ النُّجُومُ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ (لَا تَأْخُذُهُ سِـــنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ.

وَكَانَ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ يَتَقَدَّمُ صُفُوفَهُمْ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ بِيَدِهِ رَايَةٌ سَـــوْدَاءُ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ، إِنْ أَدْرَكَ مَنْ أَمَامَهُ طَعَنَهُ بِرُمْحِهِ، وَإِنْ فَاتَهُ دَفَعَ رُمْحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَأَتْبَعُوهُ، وَقَدْ شَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَثِيرًا؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ فِي كَرِّهِ وَفَـــرِّهِ، أَهْوَى إِلَيْهِ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعِينُهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُرِيدَانِهِ، فَأَتَاهُ «عَلِيٌّ» مِنْ خَلْفِهِ، وَضَرَبَ عُرْقُوبَيِ الْجَمَلِ، فَوَقَعَ عَلَى عَجُزِهِ، وَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى الرَّجُلِ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَطَنَّ (قَطَعَ) بِهَا قَدَمَهُ إِلَى نِصْفِ سَاقِهِ!

وَهَكَذَا... أَخَذَ مِيزَانُ الْقِتَالِ تَرْجَحُ كِفَّتُهُ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا هِيَ إِلَّا سُوَيْعَاتٌ حَتَّى انْجَلَى غُبَارُ الْمَعْرَكَةِ عَنْ هَزِيمَةٍ سَاحِقَةٍ نَزَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ، وَخَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ غَنَائِمَ كَثِيرَةً وَأَسْـــلَابًا عَدِيدَةً، وَأَسْرَى بَلَغَ عَدَدُهُمْ أُلُوفًا.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُنْهَزِمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْءِ الْمَعْرَكَةِ قَدْ لَحِقُوا بِمَكَّةَ، وَهُمْ مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ، وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ، فَأَخَذُوا يُرْجِفُونَ بِهَزِيمَةِ الْمُسْـــلِمِينَ، فَسُرَّ بِذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِهَا وَأَظْهَرُوا الشَّمَاتَةَ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ:

ـ تَرْجِعُ الْعَرَبُ إِلَى دِينِ آبَائِهَا، وَقَدْ قُتِلَ «مُحَمَّدٌ»، وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ.

فَأَجَابَهُمْ «عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ» الَّذِي أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَكَّةَ:

ـ إِنْ قُتِلَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ قَائِمٌ، وَالَّذِي يَعْبُدُهُ «مُحَمَّدٌ» حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، جَاءَهُمُ الْخَبَرُ بِالنَّصْرِ، فَسُرَّ «عَتَّابٌ» وَ «مُعَاذٌ»، وَكَبَتَ اللهُ مَنْ كَانَ يَسُرُّهُ خِلَافُ ذَلِكَ.

وَقُتِلَ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَـــةِ «دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ»، أَدْرَكَـــهُ «رَبِيعَةُ بْنُ رَفِيعٍ السُّـــلَمِيُّ» فَأَخَذَ بِخِطَامِ جَمَلِهِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ امْرَأَةٌ، فَإِذَا هُوَ شَـــيْخٌ كَبِيرٌ أَعْمَى، فَقَالَ لَهُ «دُرَيْدٌ»:

ـ مَاذَا تُرِيدُ؟

فَقَالَ «رَبِيعَةُ»:

ـ أَقْتُلُكَ.

قَالَ «دُرَيْدٌ»:

ـ وَمَنْ أَنْتَ؟

فَقَالَ:

ـ «رَبِيعَةُ بْنُ رَفِيعٍ السُّلَمِيُّ».

ثُمَّ ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ، فَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا، فَقَالَ لَهُ «دُرَيْدٌ»:

ـ بِئْسَ مَا سَـــلَّحَتْكَ بِهِ أُمُّكَ، خُذْ سَيْفِي هَذَا مِنْ مُؤَخَّرِ الرَّحْلِ، ثُمَّ اضْرِبْ بِهِ، وَارْفَعْ عَنِ الْعِظَامِ وَاخْفِضْ عَـــنِ الدِّمَاغِ، فَإِنِّي كَذَلِكَ كُنْتُ أَضْرِبُ الرِّجَالَ، ثُمَّ إِذَا أَتَيْـــتَ أُمَّكَ فَأَخْبِرْهَا أَنَّكَ قَتَلْتَ «دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ»، فَرُبَّ يَوْمٍ قَدْ مَنَعْتُ فِيهِ نِسَاءَكَ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ «رَبِيعَةُ» أُمَّهُ بِذَلِكَ، قَالَتْ لَهُ:

ـ أَمَا وَاللهِ لَقَدْ أَعْتَقَ اثْنَيْنِ... بَلْ ثَلَاثًا، هَـــلَّا تَكَرَّمْتَ عَنْ قَتْلِهِ لَمَّا أَخْبَرَكَ بِمَنِّهِ عَلَيْنَا؟!

فَقَالَ لَهَا «رَبِيعَةُ»:

ـ مَا كُنْتُ لِأَتَكَرَّمَ عَنْ رِضَا اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَعَادَ الْمُسْلِمُونَ غَانِمِينَ سَالِمِينَ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُمْ.

وَأُسْـــدِلَ السِّـــتَارُ عَلَى صَفْحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِتَبْدَأَ صَفْحَةٌ جَدِيدَةٌ.

وَاعْتَبَرَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ بِمَا عَنَّفَهُمْ بِهِ اللهُ تَعَالَى عَلَى غُرُورِهِمْ وَتَوَلِّيهِمْ عِنْدَ الزَّحْفِ.

وَلَيْتَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ يَعْتَبِرُونَ وَيَتَّعِظُونَ!!

15

غَزْوَةُ تَبُوكَ

غَزْوَةُ تَبُوكَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

تَوْطِئَةٌ:

لَقَدْ كَانَتْ كُلُّ الْغَزَوَاتِ الَّتِي غَزَاهَا رَسُـــولُ اللهِ ﷺ تَحْفِلُ بِالْكَثِيرِ مِنْ مَوَاقِفِ الِابْتِـــلَاءِ وَالِامْتِحَانِ تَتَبَلْوَرُ مِنْ خِلَالِهَا حَقَائِـــقُ الْإِيمَانِ وَقَوَاعِدُهُ وَأُسُسُهُ.

وَالْغَزْوَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَـــدَدِ الْحَدِيثِ عَنْهَا «غَزْوَةُ تَبُوكَ»، تَنْفَرِدُ عَنْ كُلِّ تِلْكَ الْغَزَوَاتِ بِسِمَاتٍ وَمُمَيِّزَاتٍ.

فَهِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ فِي أَسْـــبَابِهَا وَمَرَاحِلِهَا وَنَتَائِجِهَا مُخْتَبَرًا لِلْإِيمَانِ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتِ امْتِحَانًا عَسِيرًا وَفِتْنَةً شَاقَّةً.

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُـــولُ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾.

غَزْوَةُ تَبُوكَ

تَقَعُ «تَبُوكُ» ـ وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ ـ عَلَى بُعْدِ ٧٠٠ كِيلُومِتْرٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي طَرِيقِ الذَّاهِبِ إِلَى الشَّـــامِ، ذَاتُ مَاءٍ وَشَجَرٍ، لَطِيفَةُ الْهَوَاءِ طَيِّبَةُ الْمُنَاخِ.

وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ دِمَشْـــقَ ٥٠٠ كِيلُومِتْرٍ، فَهِيَ أَقْرَبُ لِلشَّامِ مِنْهَا لِلْحِجَازِ، وَحَتَّى فِي طَبِيعَتِهَا وَمُنَاخِهَا أَيْضًا.

وَتُعْتَبَرُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُدُنِ الْهَامَّةِ فِي السُّعُودِيَّةِ؛ أَسْوَاقُهَا عَامِرَةٌ، وَتِجَارَتُهَا رَائِجَةٌ، وَلِمَطَارِهَا الْمَدَنِيِّ أَهَمِّيَّةٌ خَاصَّةٌ.

كَانَتْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَلِيلَةَ عَدَدِ السُّكَّانِ، وَلَيْسَتْ ذَاتَ شَأْنٍ يُذْكَرُ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْغَزْوَةُ بِاسْمِهَا نَظَرًا لِأَنَّهَا كَانَتْ مَوْضِعَ تَجَمُّعِ «الرُّومِ» الَّذِينَ هَمُّوا بِالْمُسْلِمِينَ لِيُقَاتِلُوهُمْ.

وَتُسَمَّى الْغَزْوَةُ أَيْضًا بِاسْمَيْنِ آخَرَيْنِ؛ فَتُسَمَّى غَزْوَةَ «الْعُسْرَةِ» وَتُسَمَّى «الْفَاضِحَةَ».

زَمَنُهَا: وَقَعَتْ غَزْوَةُ «تَبُوكَ» فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنَ الْعَامِ التَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ، وَمَنْ جَعَلَهَا مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ بَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَهُوَ خَطَأٌ أَوْ تَحْرِيفٌ مِنَ النُّسَّاخِ، وَقَدْ تَعَمَّدَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذِكْرَهَا عَلَى الصُّورَةِ السَّابِقَةِ إِشَارَةً مِنْهُ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ غَزْوَةٍ غَزَاهَا النَّبِيُّ ﷺ.

أَسْبَابُهَا: تَكْثُرُ الرِّوَايَاتُ وَالْأَخْبَارُ حَوْلَ أَسْبَابِ غَزْوَةِ تَبُوكَ؛ فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ نَصَارَى الْعَرَبِ كَتَبُوا إِلَى «هِرَقْلَ» قَائِدِ الرُّومِ يَسْتَحِثُّونَهُ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُشَجِّعُونَهُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَفِيدًا مِنْ فُرْصَةِ الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ الَّتِي عَمَّتْ بِلَادَ الْعَرَبِ، فَأَرْسَلَ جَيْشًا قِوَامُهُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ رَجُلٍ بِقِيَادَةِ رَجُلٍ مِنْ أَعْوَانِهِ يُدْعَى «قُبَاذ».

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا مَنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الِاقْتِرَابِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ، قَالَتْ قُرَيْشٌ:

- لَتُقْطَعَنَّ عَنَّا الْمَتَاجِرُ وَالْأَسْوَاقُ، وَلَيَذْهَبَنَّ مَا كُنَّا نُصِيبُ مِنْهَا.

فَعَوَّضَهُمُ اللهُ بِالْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى عِنْدَمَا أَنْزَلَ قَوْلَهُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ ﴾، فَعَزَمَ ﷺ عَلَى قِتَالِ الرُّومِ.

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ سَبَبَهَا أَنَّهُ بَلَغَهُ مِنَ الْأَنْبَاطِ الَّذِينَ يَقْدِمُونَ بِالزَّيْتِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّ الرُّومَ تَجَمَّعَتْ بِالشَّامِ مَعَ «هِرَقْلَ»، وَاجْتَمَعَتْ مَعَهُمْ بَعْضُ قَبَائِلَ مِنْ «لَخْمٍ» وَ«جُذَامَ» وَ«عَامِلَةَ» وَ«غَسَّانَ» وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُتَنَصِّرَةِ الْعَرَبِ، وَجَاءَتْ مُقَدِّمَتُهُمْ إِلَى «الْبَلْقَاءِ»، فَلَمَّا بَلَغَهُ ﷺ ذَلِكَ نَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُ؛ لِيَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ بِمَا يَحْتَاجُونَهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَرْبِ، وَذَلِكَ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي كُلِّ غَزَوَاتِهِ السَّابِقَةِ لَا يُعْلِنُ عَنْ وِجْهَتِهِ أَبَدًا؛ خَوْفًا مِنْ عُيُونِ الْأَعْدَاءِ، أَمَّا فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ فَقَدْ أَعْلَنَ ذَلِكَ صَرَاحَةً.

هَذِهِ الرِّوَايَةُ هِيَ أَرْجَحُ الرِّوَايَاتِ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُحَقِّقِينَ.

ظُرُوفُهَا: لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ، حَثَّ النَّاسَ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْحُمْلَانِ (مَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَجِمَالٍ، وَذَلِكَ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ) فَجَاءُوا بِصَدَقَاتٍ كَثِيرَةٍ.

وَتَبَارَى الصَّحَابَةُ رِضْـــوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ سَيِّدُنَا «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا.

وَكَانَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَيِّدُنَا «أَبُو بَكْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ إِذْ جَاءَ بِمَالِهِ كُلِّهِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ ﷺ:

- هَلْ أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ شَيْئًا؟

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ.

ثُمَّ جَاءَ «عُمَرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنِصْفِ مَالِهِ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

- هَلْ أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ شَيْئًا؟

فَقَالَ:

- نَعَمْ، نِصْفَ مَالِي.

ثُمَّ جَـــاءَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ بِمِئَتَيْ أُوقِيَّةٍ فِضَّةٍ، وَتَصَدَّقَ «عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسَبْعِينَ وَسْقًا (حِمْلًا) مِنْ تَمْرٍ.

ثُمَّ جَاءَ «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَنَثَرَ فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَأَخَذَ يُقَلِّبُهَا بِيَدَيْهِ وَعَيْنَاهُ دَامِعَتَانِ؛ ثُمَّ قَالَ:

ـ مَا ضَرَّ «عُثْمَانَ» مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا «عُثْمَانُ» مَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ نَظْرَةً فَاحِصَةً، فَوَجَـــدَ أَنَّ الْمَالَ الَّذِي تَجَمَّعَ لَدَيْهِ غَيْرُ كَافٍ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي الْمَسْجِدِ وَقَامَ فَخَطَبَ وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّضْحِيَةِ وَالْبَذْلِ، فَقَالَ «عُثْمَانُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ـ عَلَيَّ مِئَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا.

فَلَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ دَرَجَةً مِنَ الْمِنْبَرِ وَهُوَ لَا يَزَالُ يَدْعُو، قَالَ «عُثْمَانُ»:

- وَأَيْضًا عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ أُخْرَى بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا.

وَبَلَغَ مَجْمُوعُ مَا تَبَرَّعَ بِهِ عُثْمَانُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْبَعَمِئَةِ بَعِيرٍ.

وَنَادَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْقَبَائِلِ دَاعِيًا إِلَى الْجِهَادِ، فَتَوَافَدَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجَزِيـــرَةِ، حَتَّى اكْتَمَلَ لَدَيْهِ الْعَدَدُ اللَّازِمُ لِلْغَزْوِ، وَقَصَّرَ الْمَالُ وَالْخَيْلُ وَالْجِمَالُ عَنِ اسْتِيعَابِ جَمِيعِ الَّذِينَ تَطَوَّعُوا لِلْقِتَالِ.

فَرَجَعَ عَدَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَوَاطِنِهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ تَحَسُّـــرًا عَلَى فَوَاتِ الْفُرْصَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وَعِنْـــدَ «ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ» مِنْ ضَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كَانَ يَقُومُ مُعَسْـــكَرُ تَجَمُّعِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ بَلَغَ عَدَدُهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَكَانَتْ خَيْلُهُمْ عَشَرَةَ آلَافٍ، هُنَاكَ أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَزِّعُ الْقُوَّاتِ، وَيُنَظِّمُ الْمُقَاتِلِينَ، وَيُعْطِي التَّعْلِيمَاتِ، وَيُسَلِّمُ الرَّايَاتِ وَالْأَلْوِيَةَ، وَيُرَتِّبُ الْفِرَقَ.

وَعِنْدَمَا أُعْطِيَتِ الْأَوَامِرُ بِالتَّحَـــرُّكِ، تَخَلَّفَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَـــلُولَ» وَ«سُوَيْلِمٌ» اللَّذَانِ كَانَا يَهُودِيَّيْنِ وَمَا أَسْلَمَا إِلَّا ظَاهِرًا.

وَلَمْ يَكْتَفِيَا بِذَلِكَ التَّخَلُّفِ، بَلْ أَخَذَا يُرْجِفَانِ بَيْنَ النَّاسِ قَائِلَيْنِ:

ـ أَتَحْسَبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ (يَعْنِي قِتَالَ الرُّومِ) كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؛ وَاللهِ لَكَأَنَّا بِهِمْ ـ أَيِ الْمُسْـــلِمِينَ ـ غَـــدًا مُقَرَّنِينَ فِي الْحِبَالِ (أَيْ أَسْرَى فِي أَيْدِي الرُّومِ).

وَعَلِمَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ بِأَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَمَا يُشِيعُونَهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ «عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ:

ـ أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا، فَقُلْ: بَلَى قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا.

فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ «عَمَّارٌ» فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَقَالُوا:

- إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.

كَانَ الْجَوُّ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ حَارًّا شَـــدِيدَ الْحَرَارَةِ، قَائِظًا شَدِيدَ الْقَيْظِ؛ لَاهِبًا سَـــاخِنًا. فَوَجَدَهَا بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ فُرْصَةً يَهْتَبِلُونَهَا (يَغْتَنِمُونَهَا)؛ لِيُثْنُوا ضِعَافَ النُّفُوسِ عَنْ مُرَافَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

كَمَا جَاءَ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ ـ بَدَنًا وَمَالًا ـ يَعْتَذِرُونَ عَنِ الْمَسِيرِ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَأَذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ.

كَمَا تَخَلَّفَ ثَلَاثَةُ أَنْفَارٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ عُذْرٍ وَهُمْ: «كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ»، وَ«هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ»، وَ«مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ». وَلَقَدْ عَانَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مُعَانَاةً شَدِيدَةً مِنْ جَرَّاءِ الْمُقَاطَعَةِ الَّتِي قُوطِعُوهَا مِنْ قِبَلِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ الْغَزْوَةِ، وَوَجَدُوا فِي مُقَامِهِمْ بِالْمَدِينَةِ حَرَجًا شَدِيدًا، وَحِينَمَا ارْتَحَلُوا كَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُوَبِّخُهُمْ، وَأَشْبَاحُ التَّخَاذُلِ عَنِ النُّصْرَةِ تُلَاحِقُهُمْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ تَوْبَتِهِمْ وَالْمَغْفِرَةِ لَهُمْ قُرْآنًا.

فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْقَاسِيَةِ الْعَسِيرَةِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى تَبُوكَ. كَانَتِ الشُّقَّةُ بَعِيدَةً، وَالْغَايَةُ نَائِيَةً، وَالطَّرِيقُ شَاقَّةً، وَالْأَيَّامُ عَصِيبَةً، وَالْمَسَافَةُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَ«تَبُوكَ» لَيْسَتْ يَسِيرَةً هَيِّنَةً، فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ وَجَلَدٍ.

مَرَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِدِيَارِ «ثَمُودَ» (مَدَائِنِ صَالِحٍ) الَّتِي جَعَلَ اللهُ عَالِيَهَا سَافِلَهَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ مِنْ طُغْيَانٍ وَفَسَادٍ، فَسَجَّى النَّبِيُّ ﷺ ثَوْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَفْعَلُوا كَمَا فَعَلَ، وَقَالَ لَهُمْ:

ـ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ؛ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَنْزِلَ النَّاسُ عِنْدَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَعَسْكَرَ لَيْلَتَهُ هُنَاكَ، وَنَبَّهَ النَّاسَ أَنَّهَا سَتَهُبُّ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ، وَلَا يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَحْدَهُ بَلْ مَعَهُ صَاحِبُهُ.

وَخَالَفَ أَشْخَاصٌ أَوَامِرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَشَرَّدَتْهُمُ الرِّيحُ الْعَاتِيَةُ الَّتِي هَبَّتْ كَمَا أَنْذَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَبْلُ.

وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمًا وَلَا مَاءَ مَعَهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعَطَشِ مَا كَادَ يَقْطَعُ رِقَابَهُمْ، حَتَّى حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى نَحْرِ إِبِلِهِمْ؛ لِيَشُقُّوا أَكْرَاشَهَا وَيَشْرَبُوا مَاءَهَا!

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ عَوَّدَكَ اللهُ مِنَ الدُّعَاءِ خَيْرًا، فَادْعُ لَنَا.

فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى أَرْسَلَ اللهُ سَحَابَةً فَمَطَرَتْ حَتَّى ارْتَوَى النَّاسُ، وَاحْتَمَلُوا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

لَقَدْ كَانَتْ أَيَّامُ الرِّحْلَةِ أَيَّامًا عِجَافًا قَاسِيَةً، تَجَلَّتْ فِيهَا رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ، وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَلَمَّا وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى «تَبُوكَ»، لَمْ يَجِدُوا مَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ تَجَمُّعِ الرُّومِ وَنَصَارَى الْعَرَبِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ «خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أَرْبَعِمِئَةِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ الْأَشِدَّاءِ إِلَى «دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ»، حَيْثُ يُقِيمُ فِيهَا «أُكَيْدِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ» الْمَلِكُ النَّصْرَانِيُّ مِنْ قِبَلِ «هِرَقْلَ»، وَيَتَحَصَّنُ فِي حِصْنِهَا الْعَظِيمِ، وَقَالَ لِـ «خَالِدٍ»:

ـ إِنَّكَ سَتَجِدُهُ لَيْلًا يَصِيدُ الْبَقَرَ.

وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُخْبِرُ قَائِدَهُ الْمِقْدَامَ بِوُجُوبِ الْإِتْيَانِ بِـ «أُكَيْدِرٍ» أَسِيرًا حَيًّا.

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ «أُكَيْدِرٍ» أَنْ يَخْرُجَ مِنْ حِصْنِهِ لَيْلًا فِي مُطَارَدَةِ الْبَقَرِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ «خَالِدٌ» وَجَدَهُ خَارِجَ الْحِصْنِ مَعَ أَخِيهِ «حَسَّانَ»، فَشَدَّتْ عَلَيْهِ خَيْلُ «خَالِدٌ» فَاسْتَأْسَرُوهُ، وَحَاوَلَ أَخُوهُ «حَسَّانُ» أَنْ يُقَاوِمَ فَقَتَلُوهُ، وَكَانَ عَلَيْهِ قُبَاءٌ مِنْ دِيبَاجٍ مُخَوَّصٍ بِالذَّهَبِ، فَاسْتَلَبَهُ «خَالِدٌ» وَبَعَثَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ قُدُومِهِ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَلْمِسُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ فَيَعْجَبُونَ مِنْهُ؛ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا؟! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ «سَعْدٍ» فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا.

وَهَرَبَ الْحَرَسُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ «أُكَيْدِرٍ» إِلَى دَاخِلِ الْحِصْنِ وَأَغْلَقُوهُ، وَلَمَّا كَانَ «أُكَيْدِرٌ» أَسِيرًا فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ فَاوَضَهُ «خَالِدٌ» عَلَى أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَيَاتَهُ مُقَابِلَ أَنْ يَفْتَحَ لِـ «خَالِدٍ» حِصْنَ «دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ» وَأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَلْفَيْ بَعِيرٍ وَثَمَنَمِئَةِ فَرَسٍ وَأَرْبَعَمِئَةِ دِرْعٍ وَأَرْبَعَمِئَةِ رُمْحٍ، فَقَبِلَ «أُكَيْدِرٌ» وَفَتَحَ الْحِصْنَ وَأَخَذَ «خَالِدٌ» مَا صَالَحَهُ عَلَيْهِ «أُكَيْدِرٌ»، ثُمَّ قَدِمَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَقَنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ دَمَهُ، وَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ وَخَلَّى سَبِيلَهُ.

وَلَمَّا كَانَ «هِرَقْلُ» لَمْ يَأْتِ إِلَى «تَبُوكَ»، أَرْسَلَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ رِسَالَتَهُ الَّتِي يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ يُقِيمُ بِحِمْصَ.

وَلَمَّا سَمِعَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِلَادِ الْمُحِيطَةِ بِالْمَكَانِ عَنْ قُدُومِهِ ﷺ وَمَا جَرَى لِـ «أُكَيْدِرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ»، أَتَوْهُ مُصَالِحِينَ وَمُقِرِّينَ بِسُلْطَانِهِ، فَكَتَبَ لَهُمْ بِذَلِكَ كُتُبًا وَمُعَاهَدَاتٍ، وَقَدَّمُوا لَهُ الْجِزْيَةَ وَالطَّاعَةَ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ مَا حَصَلَ مِنْ إِغَاظَةِ الْكُفَّارِ، وَظُهُورِ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ، وَفَضِيحَةِ الْمُنَافِقِينَ وَإِذْلَالِهِمْ.

ثُمَّ اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي مُجَاوَزَةِ «تَبُوكَ» وَمُتَابَعَةِ السَّيْرِ، فَقَالُوا:

ـ إِنْ كُنْتَ أُمِرْتَ بِذَلِكَ فَافْعَلْ.

فَقَالَ ﷺ :

ـ لَوْ أُمِرْتُ مِنَ اللهِ بِذَلِكَ لَمْ أَكُنْ لِأَطْلُبَ مِنْكُمُ الْمَشُورَةَ. فَأَشِيرُوا عَلَيَّ.

فَقَالُوا:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِلرُّومِ جُمُوعًا كَثِيرَةً، وَلَيْسَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ دَنَوْنَا، وَقَدْ أَفْزَعَهُمْ دُنُوُّكَ، فَلَوْ رَجَعْنَا هَذِهِ السَّنَةَ حَتَّى تَرَى، وَيُحْدِثَ اللهُ أَمْرًا.

وَاسْتَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّفَهُّمِ لِرَأْيِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ عَادَ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ فِي الْإِيَابِ أَخَفَّ مَشَقَّةً عَنِ الذَّهَابِ، وَلَقَدْ حَدَثَ فِيهَا أَنْ أَرَادَ بِضْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ رَافَقُوا جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَفْتِكُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ الْعَقَبَةِ بَيْنَ «تَبُوكَ» وَ«الْمَدِينَةِ»، فَكَمَنُوا

لَيْلًا بَعْدَ أَنْ تَلَثَّمُوا، وَأَخْفَوْا وُجُوهَهُمْ، وَذَلِكَ حَسَدًا مِنْهُمْ لِمَا لَقِيَهُ ﷺ وَمَا أَصَابَهُ مِنْ نَجَاحٍ وَظَفَرٍ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ رَغْمَ الظُّرُوفِ الْقَاسِيَةِ.

وَكَانَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ، فَأَعْلَمَ نَبِيَّهُ وَحَذَّرَهُ، فَفَشِلَتْ خُطَّتُهُمْ وَانْكَشَفَتْ خَفَايَا نُفُوسِهِمْ، وَنَجَّى اللهُ رَسُولَهُ وَفَضَحَ الْمُنَافِقِينَ.

وَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ «الْمَدِينَةَ» تَسْبِقُهُ إِلَيْهَا طَلَائِعُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَتُرَحِّبُ بِهِ وَبِصَحْبِهِ الزَّغَارِيدُ وَالْأَنَاشِيدُ.

وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ.